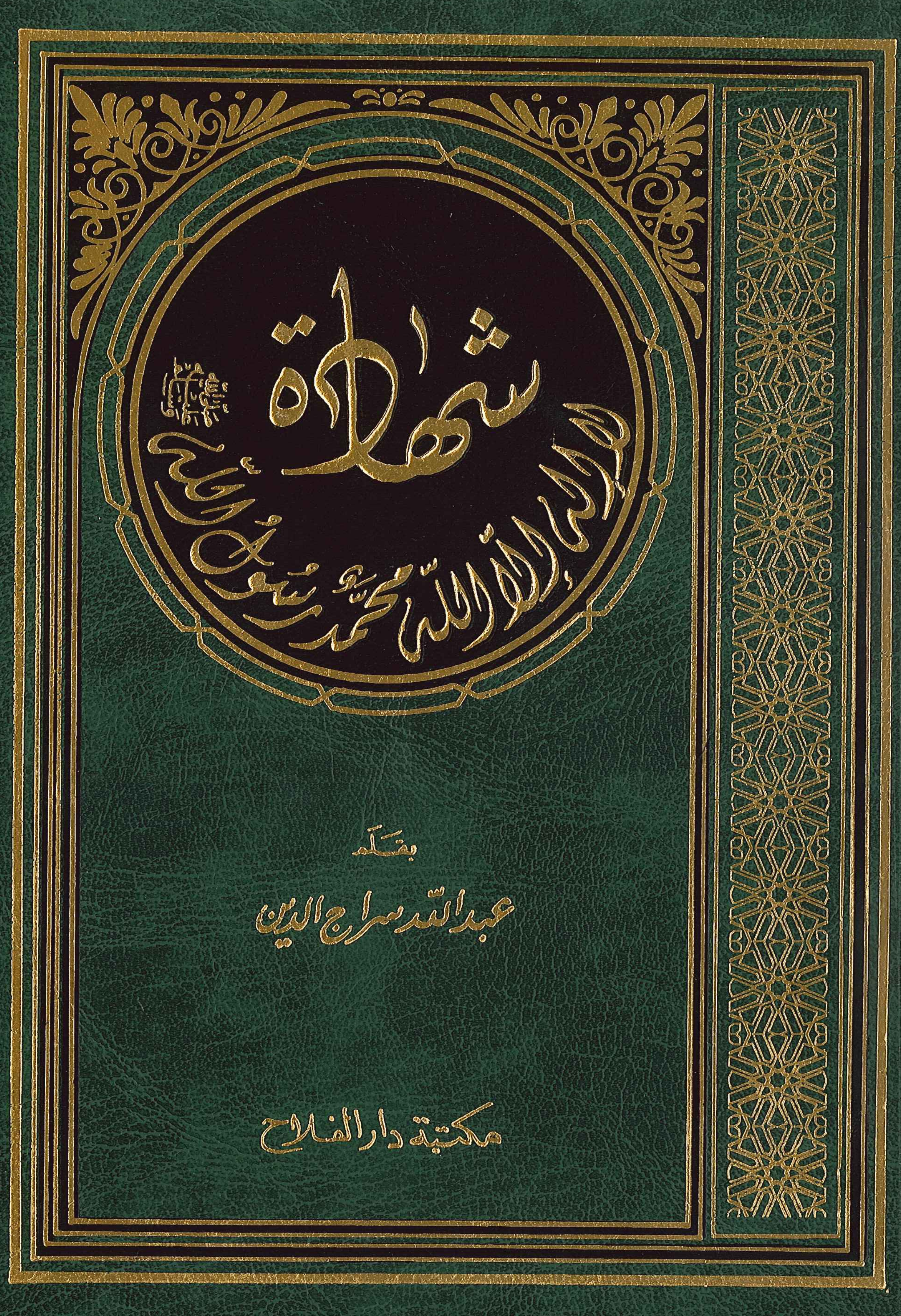

شهادة
أن لا إله إلا الله محمد رسول الله
بقلم
عبد الله سراج الدين
مكتبة دار الفلاح



شهادة

لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ

فضائلها . معانيها . شواهدها ومشاهدها . مطالبها

بقلم

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح

الطبعة الاولى

المقـــدّمَة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين وعلينا معهم أجمعين.

وبعــد:

فهذه كلمات موجزة حول شهادة لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم التي هي باب الدخول في الإسلام، وسُلم الرَّقاية للإيمان، ومعراج القلوب والأرواح إلى رب الأكوان، الرحيم الرحمن، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، باللسان إعلاناً، وبالقلم كتابةً وتبياناً، وبالجنان عرفاناً وإذعاناً.

وقد ذكرت في هذه الرسالة الموجزة - بعض فضائل الشهادتين، وبعض معانيهما وشواهدهما ومشاهدهما، وبعض ما تتطلّبه هاتان الشهادتان على وجه الاختصار والإجمال، مخافة الإطالة والإملال.

والمقصود من ذلك تعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، وتذكير العاقل، فإن كثيراً من الناس غمرتهم الجهالات، وأعمتهم الغَفَـلات، حتى إنَّهم جهلوا من أمور دينهم ما لا يجوز أن يجهلوه، بل ارتابوا في القضايا اليقينية، وشكوا في أمور الإيمان القطعية.

فأوجزت الكلام هنا ما استطعت، راجياً من الله تعالى أن أبسط الكلام مفصلاً بحججه وبيناته في مصنف آخر هو ـ أوسع وأنفع، يُشبع العقول بالأدلة القاطعة، ويَمْلأ القلوب بالأنوار الساطعة، إنَّ ربِّي لسميع الدعاء، ومجيب النداء، وحاشاه أن يَرُدَّ من سأله، أو أن يخيب من أمَّلَه.

ولقد شَرَّفني الله تعالى وأكرمني بِجَمْع هذه الرسالة وأنا في جوار الحبيب الأكرم، والرسول الأعظم، إمام الأنبياء والمرسلين، ورحمة الله تعالى للعالمين؛ وإن جار الكرام لا يُضام؛ فكيف بي وأنا في جوار سيد الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى آله وصحبه أبد الآبدين وعلينا معهم أجمعين.

* * *

فضائل لا إلّه إلّا الله وآثارها الطيبة

الأول: هي باب الدخول في الإسلام:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلّه إلّا الله، فمن قال لا إلّه إلّا الله عصم مني ماله ونفسه إلّا بحقها وحسابه على الله عَزَّ وجلَّ».

وفي رواية لمسلم: «حتى يشهدوا أن لا إلّه إلّا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به».

وروى مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «من قال لا إلّه إلّا الله، وكَفَر بما يُعبد مِنْ دون الله؛ حَرَّم الله دمه وماله، وحسابه على الله عزَّ وجلَّ».

الثاني: هي أول شعب الإيمان وأفضلها:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «الإيمان بِضْعٌ وسبعون شعبة؛ فأفضلها قول: لا إلّه إلّا الله، ـ وفي رواية لمسلم: «فأوَّلها قول: لا إلّه إلّا الله ـ وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

الثالث: لا إلّه إلّا الله بها تجديد الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «جَدِّدُوا إيمانكم»، قيل: يا رسول الله كيف نجدد إيماننا؟، قال: «أكثروا من قول لا إلّه إلّا الله»[١].

الرابع: لا إلّه إلّا الله هي من أكبر الحسنات التي تكفر السيئات:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله أوصني، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها»، فقلت: يا رسول الله أَمِنَ الحسناتِ لا إلّه إلّا الله؟، فقال صلّى الله عليه وسلم: «هي أفضل الحسنات»[٢].

ورُوِيَ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «ما من عبد قال: لا إلّه إلّا الله في ساعة من ليل أو نهار إلّا طَمَست ما في الصحيفة من السيئات حتى تَسْكُنَ إلى مثلها من الحسنات»[٣].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم قال: «عليكم بلا إلّه إلّا الله والاستغفار فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكتُ الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إلّه إلّا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون» رواه أبو يعلى.

وروى مسلم والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني بإسناد حسن من طريق أحمد كما في «ترغيب» المنذري.

(٢) رواه أحمد ورجاله ثقات إلّا أن شمر بن عطية حَدَّث به عن أشياخه عن أبي ذر رضي الله عنه. اهـ. كما في «مجمع الزوائد» وعزاه في: «الترغيب» لأحمد.

(٣) رواه أبو يعلى كما في: «ترغيب» المنذري.

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «ما على الأرض أحد يقول: لا إلّه إلّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلّا بالله؛ إلّا كَفَّرتْ عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

وعن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال: «من قال: لا إلّه إلّا الله، سبحان الله وبحمده في كل يوم مائة مرة ـ حُطَّتْ خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

الخامس: لا إلّه إلّا الله بها الأمان:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «ليس على أهل لا إلّه إلّا الله وَحْشَةٌ في قبورهم ولا مَنْشَرهم، وكأنّي أنظر إلى أهل لا إلّه إلّا الله وهم يَنْفُضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: ﴿ الحمدُ لِلَّهِ الّذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَن ﴾».

وفي رواية: «ليس على أهل لا إلّه إلّا الله وَحْشَةٌ عند الموت ولا عند القبر»[1].

السادس: لا إلّه إلّا الله تأخذ بيد صاحبها فتدخله الجنة:

جاء في حديث سمرة بن جُندب ـ الطويل ـ قال صلّى الله عليه وسلم: «ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى الجنة فَغُلِّقَتِ الأبواب دونه، فجاءت شهادة أن لا إلّه إلّا الله فأخذت بيده فأدخلته الجنة» الحديث كما في (الجامع الصغير) معزواً إلى الحكيم الترمذي والطبراني.

السابع: لا إلّه إلّا الله مفاتيح الجنة:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «مفاتيح الجنة شهادة أن لا إلّه إلّا الله»[2].

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي كما في (ترغيب) المنذري.

(٢) رواه أحمد والبزار كما في (ترغيب) المنذري، وقال في (مجمع الزوائد): =

الثامن: لا إلّه إلاّ الله تُدخل قائلها المخلص بها الجنة:

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «من قال: لا إلّه إلاّ الله مخلصاً دخل الجنة»، قيل: وما إخلاصها؟، قال: «أن تحجزه عن محارم الله»[1]. رواه الطبراني في (الأوسط والكبير).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: أسندتُ النبي صلّى الله عليه وسلم إلى صدري فقال: «من قال لا إلّه إلاّ الله خُتِم له بها دخل الجنة، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم بها دخل الجنة»[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿هل جَزاءُ الإِحْسَانِ إلاّ الإِحْسَان﴾.

(هل جزاء من قال: لا إلّه إلاّ الله إلاّ أن تدخله الجنة).

ودليل ذلك ما رواه الإمام البَغَويُّ بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلم: ﴿هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان﴾ وقال: «هل تدرون ما قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يقول: هل جزاء من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلاّ الجنة»[3].

التاسع: لا إلّه إلاّ الله مفتاح السموات:

روى الطبراني عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال

= ورجال أحمد وُثِّقوا إلاّ أن شهراً لم يسمع من معاذ. اهـ.

(١) فإخلاصك بلا إلّه إلاّ الله هو أن تمنعك عن محارم الله تعالى.

(٢) قال المنذري: رواه أحمد بإسناد لا بأس به والأصبهاني. اهـ.

(٣) انظر تفسير ابن كثير.

رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «لكل شيءٍ مِفتاحٌ ومفتاح السموات لا إلّه إلّا الله»[1].

فهي مفتاح السمٰوات للدعوات والكلمات الطيبات؛ كما روىٰ النسائي: عن يعقوب بن عاصم رضي الله عنه عن رَجُلَيْن من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلم أنهما سمعا النبي صلّى الله عليه وسلم يقول: «ما قال عبد قطُّ: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير ـ مخلصاً بها روحه، مصدقاً بها قلبه، ناطقاً بها لسانه، إلّا فتق الله عزَّ وجلَّ له السماء فَتْقاً حتى ينظر إلى قائلها من الأرض، وحُقَّ لعبدٍ نظر الله تعالى إليه أن يُعْطِيَه سُؤْلَه»[2].

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «ما قال عبد لا إلّه إلّا الله قَطُّ مخلصاً إلّا فُتِحت له أبواب السماء حتى يُفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر».

ولذلك صُدِّرَتْ بها كثير من الأَدعية النبوية الواردة أو ختمت بها؛ ومن ذلك دعاء الصباح والمساء.

العاشر: لا إلّه إلّا الله تمنع العباد من سخط الله تعالى وتُؤَمِّنُهم من عذابه:

روى ابن أبي الدنيا عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تزال لا إلّه إلّا الله تمنع العباد من سخط الله تعالى ما لم يُؤْثروا دنياهم على صَفْقة دينهم، فإذا آثروا دنياهم على صفقة دينهم ثم قالوا: لا إلّه إلّا الله رَدَّها الله تعالى عليهم وقال كذبتم»[3].

---

(١) قال في (مجمع الزوائد): وفيه أغلب من تميم وهو ضعيف اهـ.
(٢) انظر (ترغيب) المنذري.
(٣) انظر شرح ابن رجب الحنبلي على (الأربعين).

وروى ابن عساكر عن علي رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «قال حدثني جبريل قال: يقول الله تعالى: لا إلّه إلّا الله حصني، فمن دخل حصني أَمِن من عذابي»[1].

فمن قالها وهو كافر دخل في الإسلام وحُصِّن بها، أو قالها آخر كلامه دخل الحصن، أو قالها مخلصاً بها من قلبه صار من أسعد الناس بشفاعة النبي صلّى الله عليه وسلم؛ وبذلك يحصن من العذاب.

وفي رواية ابن النجار: «قال الله عزّ وجلّ: لا إلّه إلّا الله كلامي، وأنا هو، فمن قالها دخل حصني، ومَن دخل حصني أمِنَ عقابي».

وفي رواية الشيرازي: قال الله عزّ وجلّ: إنّي أنا الله لا إلّه إلّا أنا، مَنْ أقرَّ لِي بالتوحيد دخل حِصني، ومَنْ دخل حصني أمِنَ عذابي» كما في (الاتحافات السنية).

الحادي عشر: لا إلّه إلّا الله لا يسبقها عمل:

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن أمّ هانىء رضي الله عنها عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «لا إلّه إلّا الله لا تترك ذنباً ولا يسبقها عمل»[2].

وروى أيضاً عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال لِأصحابه: «ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إلّه إلّا الله»، فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله صلّى الله عليه وسلم يده ثم قال: «الحمد لله، اللهمّ بَعَثْتَني بهذه الكلمة وأمرتني بها، ووعدتني الجنة عليها وإنك لا تخلف الميعاد»، ثم قال صلّى الله عليه وسلم: «أبشروا فإن الله قد غفر لكم».

---

(١) انظر (كنز العمال).

(٢) ورواه ابن ماجه في (سننه) كما في (الفتح الكبير).

الثاني عشر: لا إلّه إلّا الله كلمة كريمة على الله تعالى:

روى البزار في (مسنده) عن عياض الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «إن لا إلّه إلّا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة من قالها صادقاً أدخله الله بها الجنة، ومَنْ قالها كاذباً حَقَنَتْ ماله ودمه؛ ولقي الله غَداً فحاسبه»[1].

الثالث عشر: لا إلّه إلّا الله كلمة عظيمة:

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «لا إلّه إلّا الله كلمةٌ عظيمة كريمة على الله تعالى من قالها مخلصاً استوجب الجنة، ومن قالها كاذباً عَصَمتْ ماله ودمه، وكان مصيره إلى النار» رواه ابن النجار كما في (الجامع الكبير) وغيره.

الرابع عشر: لا إلّه إلّا الله كلمة عظيمة لا تقاومها السمٰوات السبع والأرضون السبع:

روى النسائي وابن حبان في (صحيحه) عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال: «قال موسى صلّى الله عليه وسلم: يا ربِّ عَلِّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: قل: لا إلّه إلّا الله، قال: يا ربِّ كل عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إلّه إلّا الله، قال: إنما أريد شيئاً تَخُصّني به، قال: يا موسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع في كِفّة ولا إلّه إلّا الله في كِفّة مالت بهنَّ لا إلّه إلّا الله».

الخامس عشر: مَنْ كانت آخر كلامه دخل الجنة:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلم

---

(١) انظر شرح ابن رجب الحنبلي. وعزاه السيوطي في (الجامع الكبير) إلى أبي نعيم عن عياض الأشعري.

قال: «من كان آخر كلامه لا إلّه إلّا الله دخل الجنة» رواه أبو داود والإمام أحمد.

السادس عشر: لا إلّه إلّا الله بها الوقاية من النار:

روى الإمام أحمد عن عتبان بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «لن يُوافي عبد يوم القيامة يقول: لا إلّه إلّا الله يبتغي بها وجه الله؛ إلّا حرّم الله عليه النار».

السابع عشر: لا إلّه إلّا الله هي أفضل الذكر:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «أفضل الذكر: لا إلّه إلّا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»[(١)].

وعن عبد الله بن عَمرو عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «أفضل الذكر: لا إلّه إلّا الله، وأفضل الدعاء: الاستغفار، ثم قرأ: ﴿ فاعلم أَنَّهُ لا إلّه إلّا اللَّهُ واسْتَغْفِر لِذَنْبِكَ وللمُؤْمنين والمؤمنات ﴾[(٢)].

الثامن عشر: لا إلّه إلّا الله تُذهب الهَمَّ والغَمَّ:

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «من قال: لا إلّه إلّا الله قبل كل شيء ولا إلّه إلّا الله بعد كل شيء، ولا إلّه إلّا الله يبقى ربنا وَيَفْنَى كل شيء ـ عُوفيَ من الهَمِّ والحَزَن»[(٣)].

التاسع عشر: لا إلّه إلّا الله مَن قالها مائة مرة؛ بعثه الله تعالى وجهه كالقمر ليلة البدر:

روى الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلّى الله

---

(١) رواه ابن ماجه والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم كما في (ترغيب) المنذري.

(٢) قال في (الدر المنثور): رواه الطبراني وابن مَرْدُوْيَه والديلمي.

(٣) انظر (ترغيب) المنذري.

عليه وسلم قال: «ليس من عبد يقول: لا إلّه إلاّ الله مائة مرة إلاّ بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولم يرفع يومئذٍ لأحد أفضل مِنْ عَمِله إلاَّ مَنْ قال مثل قوله أو زاد»[1].

العشرون: لا إلّه إلاّ الله مائة مَرَّة في كل يوم خير مما أطبقت عليه السماء والأرض:

عن أم هانىء رضي الله عنها قالت: مرَّ بي رسول الله صلّى الله عليه وسلم ذات يوم فقلت: يا رسول الله: قد كبُرتْ سِنِّي، وضعفت فمرني بعمل أعمله وأنا جالسة، فقال صلّى الله عليه وسلم: «سَبِّحي الله مائة تسبيحة ـ فإنها تعدل لك مائة رقبة تعتقينها مِنْ ولد إسماعيل، واحمدي الله مائة تحميدة ـ فإنها تعدل مائة فرس مُسْرجة مُلجمة تحملين عليها في سبيل الله، وكبِّري الله مائة تكبيرة ـ فإنها تعدل لك مائة بدنة مُقلَّدة مُتقبَّلة، وهلّلي الله مائة تهليلة ـ»، قال أبو خلف ـ أحد الرواة ـ أحسبه قال: «تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يُرفع يومئذٍ عمل لأحد أفضل مما رُفعَ لك، إلاّ أن يأتي بمثل ما أتيتِ».

قال المنذري: رواه أحمد بإسناد حسن، ثم قال ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وقال فيه: «وقولي: لا إلّه إلاّ الله مائة مرة ـ فهو خير لك مما أطبقت عليه السماء والأرض. . .» إلى تمامه.

الحادي والعشرون: لا إلّه إلاّ الله بها يخرج العصاة من النار:

روى البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «يخرج من النار مَنْ قال: لا إلّه إلاّ الله وفي قلبه وزن شعرة من خير ـ وفي رواية من إيمان ـ، ويخرج من النار مَنْ قال: لا إلّه إلاّ الله وفي قلبه وزن بُرّة من خير، ويخرج من النار مَنْ قال: لا إلّه

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

إلّا الله وفي قلبه وزن ذَرَّة من خير».

قال في (الفتح): فإن قيل: لم يذكر الرسالة ـ أي الشهادة بأن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

فالجواب أن المراد المجموع، وصار الجزء الأول عَلَماً عليه كما تقول: قرأت: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ أي: السورة كلها. اهـ.

والمراد أنه قالها ـ أي: قال: لا إلّه إلّا الله تصديقاً برسول الله صلّى الله عليه وسلم، وإيماناً واستجابةً لدعوته، وهذا يجري في جميع المطلقات في هذا الباب.

الثاني والعشرون: لا إلّه إلّا الله من قالها صادقاً من قلبه كان أسعد الناس بشفاعة النبي صلّى الله عليه وسلم:

جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل يا رسول الله ـ وفي رواية للبخاري قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، ولأبي نعيم أن أبا هريرة قال: يا رسول الله: مَنْ أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أوّلَ مِنك لما رأيت من حِرصِكَ على الحديث، أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إلّه إلّا الله خالصاً من قلبه أو نفسه».

قال الحافظ في (الفتح): والمراد مَعَ محمدٌ رسول الله ـ أي قال: لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ـ، لكن قد يكتفى بالجزء الأول من كلمة الشهادة لأنه صار شعاراً بمجموعها كما تقدم في الإيمان.

الثالث والعشرون: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله هي مكتوبة في صدر اللوح المحفوظ، وفي قلوب المؤمنين:

روى الحافظ البغوي من طريق إسحٰق بن بشر أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن في صدر اللوح لا إله إلاّ الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله وصَدَّق بوعده واتبع رسله أدخله الله الجنة، قال: واللوح: لوح من دُرّة بَيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافّتاه من الدرِّ والياقوت، ودفَّتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش)، كما في تفسير ابن كثير.

وروى الطبراني بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى خلق لَوْحاً محفوظاً مِنْ دُرَّة بيضاء، صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، لله في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة: يخلق ويرزق، ويُميت ويحيي، ويُعِزُّ ويُذل، ويفعل ما يشاء»[1].

فهو سبحانه كتب في صدر اللوح المحفوظ عنده: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، وحفظها في اللوح، وهو سبحانه يكتبها في صدر من يشاء من عباده؛ قال سبحانه: ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوْحٍ مِنْهُ ﴾ وهوسبحانه يحفظها على مَنْ يشاء مِنْ عباده فلا تمحى من لوح صدره؛ قال تعالى: ﴿ وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَقْوَىٰ، وَكَانُوْا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾.

اللهمّ اجعلنا منهم بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، ويا ذا الفضل العظيم، فإنك قُلتَ وقولك الحق: ﴿ واسْأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وأنت أجلُّ وأكرم من أن تأمرنا بالسُّؤال وتحرمنا النوال، وصلّى الله على

(١) انظر جميع ذلك في تفسير ابن كثير.

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

الرابع والعشرون: لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله مكتوبة على العرش وعلى السماوات:

روى الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أوحى الله تعالى إلى عيسى: آمِنْ بمحمد ومُرْ أُمَّتَكَ أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله فسكن)[1].

وروى الطبراني وابن قانع وابن مَرْدُوْيَه عن أبي الحمراء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمّا أُسْرِيَ بي إلى السماء السابعة فإذا على ساق العرش الأيمن: لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله» كما في (الحصن الحصين).

وروى ابن أبي عاصم في كتاب (السنة) وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنه: (أن الله تعالى قال: يا موسى إنّه مَنْ لَقِيَني وهو جاهل بمحمد أدخلته النار.

فقال موسى: ومَنْ محمد؟!!.

قال: يا موسى وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منه، كتبت اسمه مع اسمي على العرش قبل أن أخلق السموات والأرض والشمس والقمر بألفي ألف سنة) كما في شرح (المواهب).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: رواه أبو الشيخ في (طبقات الأصفهانيين)، وصححه الحاكم وأقره السبكي في (شفاء السقام)، والبلقيني في (فتاويه)، ومثله لا يقال رأياً فله حكم الرفع. اهـ.

بحق محمد صلّى الله عليه وسلم إلاّ ما غَفَرْتَ لي.

فقال الله تعالى: يا آدم وكيف عرفتَ محمداً ولم أخلقه ـ أي لم أخلق جسده ـ.

فقال: يا ربِّ إنك لما خلقتني بيدك، ونفخت فِيَّ مِنْ روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إلّه إلاّ الله محمد رسول الله، فعلمتُ أنك لم تضف إلى اسمك إلاّ أحبَّ الخلق إليك.

فقال الله تعالى: صدقت يا آدم إنّه لأحبُّ الخلق إليّ، وإذا سألتني بحقه قد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك»[1].

وروى أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة، والبزار من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما عُرِجَ بي إلى السماء ما مررتُ بسماءٍ إلّا وجدتُ اسمي مكتوباً: لا إلّه إلاّ الله محمد رسول الله»[2].

الخامس والعشرون: لا إلّه إلاّ الله محمد رسول الله ـ مكتوبة على عارضتي الجنة، وعلى كل ورقة من شجر الجنة:

روى ابن النجار والرافعي عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «دخلتُ الجنة فرأيتُ في عارِضَتيْ الجنة مكتوباً ثلاثة أسطر بالذهب:

السطر الأول: لا إلّه إلاّ الله محمد رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه البيهقي في (دلائل النبوة) الذي قال فيه الذهبي: عليك به فإنه كله هدى ونور، ورواه الحاكم وصححه، ورواه الطبراني كما في (المواهب) للحافظ القسطلاني.

(٢) انظر شرح (المواهب)، ونقل عن السيوطي أنه قال: إنه حديث حسن لكثرة طرقه.

والسطر الثاني: ما قَدَّمنا وجدنا، وما أكلنا ربحنا، وما خَلَّفْنَا خسرنا.

والسطر الثالث: أُمَّةٌ مُذْنِبَةٌ وَرَبٌّ غفور»[١].

وروى أبو نعيم في (الحلية) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلّا مكتوب عليها: لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله» صلّى الله عليه وسلم.

السادس والعشرون: بكل تهليلة صدقة:

جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضْعِ أحدكم صدقة» الحديث.

السابع والعشرون: لا إلّه إلّا الله هي من أعظم الباقيات الصالحات التي تبقى مع صاحبها أبداً:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات»، قيل: وما هي يا رسول الله؟، قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله»[٢].

الثامن والعشرون: لا إلّه إلّا الله؛ وسبحان الله؛ والحمد لله؛ تذكر بصاحبها وتشفع به عند الله تعالى:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه

---

(١) انظر (الفتح).

(٢) قال المنذري: رواه أحمد وأبو يعلى والنسائي واللفظ له، وابن حبان في (صحيحه)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. اهـ.

وسلم: «إن مما تذكرون من إجلال الله: التسبيح والتهليل والتحميد؛ ينعطفن حول العرش لَهُنَّ دويٌّ كدويِّ النحل تُذَكِّرُ بصاحبها، أما يحب أحدكم أن يكون له من لا يَزال يُذَكِّر به؟»[1].

التاسع والعشرون: لا إلّه إلاّ الله لا يُقاومها شيءٌ، وهي أعظم من السماوات والأرض وأقوى:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: قال موسى صلّى الله عليه وسلم: يا رب عَلِّمْني شيئاً أذكرك به وأدعوك به.

قال: قل: لا إلّه إلاّ الله، فقال موسى: يا ربِّ كل عبادك يقولُ هذا.

قال: قل: لا إلّه إلاّ الله، قال موسى: إنَّما أريد شيئاً تَخُصُّني به.

قال: يا موسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع في كِفَّة، ولا إلّه إلاّ الله في كِفَّة مالت بها لا إلّه إلاّ الله» قال المنذري: رواه النسائي وابن حبان في (صحيحه) والحاكم وصحح إسناده.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «ألا أُخْبِرُكم بوصية نوح ابنه»؟، قالوا: بلى، قال: «أوصى نوح ابنه فقال: يا بني إني أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين:

أوصيك بقول: لا إلّه إلاّ الله؛ فإنها لو وضعت في كِفَّة ووضعت السماوات والأرض في كِفَّة لرجحت بهنّ، ولو كانت حلقة لقَصَمَتْهُنَّ حتى تخلص إلى الله تعالى» الحديث قال المنذري: رواه البزار ورواته

(١) قال في (الترغيب): رواه ابن أبي الدنيا وابن ماجه واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. اهـ.

محتج بهم في الصحيح إلّا ابن إسحاق، وهو في النسائي أيضاً، قال: ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولفظه:

«قال لابنيه: وآمر كما بلا إلّه إلّا الله، فإن السماوات والأرض وما فيهما لو وضعت في كِفَّة ووضعت لا إلّه إلّا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما، ولو أنَّ السماوات والأرض وما فيهما كانت حلقة ووضعت لا إلّه إلّا الله عليهما لقصمتها.

وآمركما: بسبحان الله وبحمده؛ فإنَّها صلاة كل شيء، وبها يُرزق كل شيء».

فَقُوَّة لا إلّه إلّا الله وثوابها أعظم وأقوى من السماوات والأرض وأرجح.

الثلاثون: لا إلّه إلّا الله بها ترجح كِفَّة الميزان عند الرحمن:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «يُؤْتى بعمل العبد يوم القيامة فيوضع في كِفَّة الميزان فلا يَرجَحُ حتى يؤتىٰ بصحيفة مَختومة مِنْ يَدِ الرحمن عَزَّ وَجَلَّ فتوضع في كفة الميزان فترجح وهي: لا إلّه إلّا الله»[١].

وروى ابن أبي داود عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع يقول: «إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد وهب لكم ذنوبكم عند الاستغفار، فمن استغفر بِنِيَّة صادقة غفر له، ومَنْ قال: لا إلّه إلّا الله رجح ميزانه، ومن صَلّى عليَّ كنت شفيعه يوم القيامة»[٢].

---

(١) انظر (الحلية) لأبي نعيم.

(٢) كذا في (جلاء الأفهام) و(الصِلاَتِ والبِشَر) وقال: أخرجه الحسن بن أحمد البَنَّا بسند جيد. اهـ.

الحادي والثلاثون: يُخرج الله تعالى من النار مَنْ قالَ: لا إلّه إلّا الله:

جاء في حديث الشفاعة المرويّ في الصحيحين وغيرهما: «أن الله تعالى يقول: وعِزَّتي وجلالي لأخرجن منها ـ أي من النار ـ من قال: لا إلّه إلّا الله».

وروى أبو نعيم في (الحلية) بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «إن أناساً من أهل لا إلّه إلّا الله يَدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللّات والعُزَّى: ما أَغنى عنكم قولكم: لا إلّه إلّا الله، وأنتم معنا في النار، قال: فيغضب الله عَزَّ وجَلَّ فَيُخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة فيبرأون من حُروقهم كما يبرأ القمر من كُسُوفه، فيدخلون الجنة ويُسمَّون فيها بالجَهَنَّمِيِّيْنَ».

فقال رجل: يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله صلّى الله عليه وسلم؟.

فقال أنس: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم يقول: «مَن كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّداً فليتبوأ مقعد، من النار»؛ نعم أنا سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول هـذا[1].

الثاني والثلاثون: لا إلّه إلّا الله هي أعظم نعم الله على عباده وأعمُّها:

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن مجاهد قال في قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قال: لا إلّه إلّا الله.

وروى أيضاً عن سفيان بن عيينة قال: (ما أنعم الله على العباد نِعْمَةً أفضل مِنْ أنْ عَرَّفهم أن: لا إلّه إلّا الله).

قال: (وإن لا إلّه إلّا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا)[2].

---

(١) انظر (الحليـة).

(٢) انظر (كتاب الشُكر) لابن أبي الدنيا.

الثالث والثلاثون: لا إلّه إلّا الله لها نور يَقْتَحِمُ السماوات حتى يصل إلى العمود النوراني بين يدي العرش:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله تبارك وتعالى عموداً من نور بين يدي العرش، فإذا قال العبد: لا إلّه إلّا الله اهْتَزَّ ذلك العمود.

فيقول الله تبارك وتعالى: اسكن فيقول: كيف أسكن ولم تغفر لقائلها؟!.

فيقول سبحانه: إني قد غفرتُ له ـ فيسكن عند ذلك»[1].

ويشهد لذلك ما رواه الدَيْلَمِيُّ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «إذا قال العبد: لا إلّه إلّا الله، خرقتِ السماوات حتى تقف بين يدي الله تعالى، فيقول: اسكني، فتقول: كيف أسكن ولم تغفر لقائلي؟!، فيقول: ما أخرجتُكِ على لسانه إلّا وقد غفرت له».

الرابع والثلاثون: لا إلّه إلّا الله ليس لها دون الله حجاب:

روى الترمذي عن عبد الله بن عَمْرٍو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تَمْلؤه، ولا إلّه إلّا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه»[2].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء إلّا بَيْنَه وبين الله حجاب إلّا قول: لا إلّه إلّا الله، ودعاء الوالد»[3].

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه البزار وهو غريب.

(٢) انظر (ترغيب) المنذري.

(٣) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن مَرْدُوْيَه.

فضل الشهادتين

روى مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «من شهد أن لا إلّه إلّا الله وأن محمداً رسول الله حَرَّم الله عليه النار».

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا معاذ بن جبل»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً ـ، قال: «ما مِنْ أَحَدٍ يشهد أن لا إلّه إلّا الله وأن محمداً رسول الله صِدْقاً من قلبه، إلّا حَرَّمَهُ الله على النار»، قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فَيَسْتَبْشِرُوا؟، قال: «إذاً يَتَّكِلوا»، وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً ـ أي بُعْداً عن الإثم في الكتمان.

قال الحافظ المنذري: وقد ذهب طوائف من أساطين أهل العلم إلى أَنَّ مِثل هذه الإطلاقات التي وردت فيمن قال: لا إلّه إلّا الله دخل الجنة، أو حَرَّم الله عليه النار، ونحو ذلك إنَّما كانت في ابتداء الإسلام، حين كانت الدعوة إلى مُجَرَّدِ الإقرار بالتوحيد، فلما فرضت الفرائض، وحُدَّت الحدود نسخ ذلك، والدلائل على هذا كَثيرة متظاهرة.

قال عبد الله: يُحتملٍ أنه أراد هنا بالنسخ، النسخ التقييدي ـ وذلك جرياً على عادة السلف أَنَّهم يطلقون النسخ على أيّ تَغَيُّرٍ للأصل: بالوصف، أو بنحو التخصيص للعام، أو التقييد للمطلق أو غير ذلك.

فالمراد هنا تغيير الحكم من الإطلاق للتقييد ـ أي: فلما فرضت الفرائض وَجَبَت عليهم إلى جانب قول: لا إلّه إلّا الله، وبذلك تَحْرُم عليهم النار، فمن ترك الفرائض مُنْكِراً لها أو هازِئاً بها لا تحفظه التهليلة من النار.

ثم قال الحافظ المنذري: وإلى هذا القول ذهب الضَحَّاكُ والزهري وسفيان الثوري وغيرهم.

وقالت طائفة أخرى: لا احتياج إلى ادعاء النسخ في ذلك فإنَّ كل ما هو من أركان الدين، وفرائض الإسلام هو من لوازم الإقرار بالشهادتين وتَتِمَّاتِه، فإذا أَقَرَّ ثُمَّ امتنع عن شيءٍ من الفرائض جَحْداً أو تهاوناً على سبيل الخلاص منه ـ حكمنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة؛ قال المنذري: وهذا القول أيضاً قريب.

قال: وقالت طائفة أخرى: التَلَفُّظُ بكلمة التوحيد سبب يقتضي دخول الجنة والنجاة من النار بشرط أن يأتي بالفرائض ويجتنب الكبائر، فإن لم يأت بالفرائض ولم يجتنب الكبائر لم يمنعه التلفظ بكلمة التوحيد من دخول النار؛ وهذا قريب مما قبله أو هُوَ هُوْ. اهـ.

روى الإمام أحمد عن رِفاعة الجُهَنِي أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال: «أشهد عند الله: لا يموت عبد يشهد أن لا إلّه إلّا الله وأني رسول الله صِدقاً من قلبه، ثم يُسدِّد إلّا سلك في الجنة».

وقال صلّى الله عليه وآله وسلم: «وقد وَعَدَني ربي عَزَّ وجَلَّ أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عقاب، وإني لأرجو أن لا تدخلوها حتى تُبَوَّؤُا أنتم ومَنْ صلح من آبائكم وأزواجكم وذراريكم مساكن الجنة» كما في (مجمع الزوائد).

وروى الطبراني في الأوسط عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ قال: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، أطاع بها قلبه، وذلَّ بها لسانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ حَرَّمه الله عَزَّ وجَلَّ على النار».

وعن عَمْروِ بن عبسة قال: أقبل شيخ يدعم على عصاً حتي قام بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا نبي الله إنَّ لي غَدَرات وفجرات فهل يَغفر الله لي؟.

فقال صلّى الله عليه وآله وسلم: «أليس تشهد أن لا إلّه

إلّا الله؟»، قال: نعم وأشهد أن محمد رسول الله.

قال: «فقد غفر الله غدراتك وفجراتك» رواه أحمد والطبراني ورجاله موثقون كما في (مجمع الزوائد).

فضل الإشهاد على الشهادتين

عن سَلْمان ابن الإسلام ـ يعني الفارسي ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قال: اللهم إني أُشهدك، وأشهد مَلائِكتك، وحملة عرشك، والسماوات ومن فيهنَّ، والأرضين ومن فيهنَّ، وأشهد جميع خلقك بأنك أنت الله لا إلّه إلّا أنت، وأكفِّرُ من أبى ذلك من الأولين والآخرين.

وأشهد أَنَّ محمداً عبدك ورسولك؛ من قالها مرةً أعتق الله ثلثه من النار، ومن قالها مرتين أعتق تعالى ثلثيه من النار، ومَنْ قالها ثلاثاً عُتِقَ كلُّه من النار»[1].

الشهادة بأن لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله ـ هي القول الثابت

قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذين آمَنُوا بالقَوْلِ الثَابِتِ في الحياةِ الدّنْيَا وفي الآخرة، ويُضِلُّ الله الظَالِمِين ويَفْعَل اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ الآية.

وقد جاء في الحديث عن صاحب البيان عن القرآن، الـذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَنَزَّلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِم ولَعَلهم يَتَفَكَّرُون ﴾، جاء عنه صلّى الله عليه وآله وسلم أن هذا القول الثابت هو شهادة: لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) رواه الطبراني بإسنادين، وفي أحدهما أحمد بن إسحاق ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وذكر قبله نحو هذا الحديث عن البزار أيضاً. اهـ.

والتَثبيت عليه في الآخرة، هو التثبيت عليه حين يسأل الإنسان في القبر.

فالمسلم يُثَبِّتُه الله تعالى ويَهديه للجواب المطلوب، وأما الكافر فإنَّ الله تعالى يُضِلُّه فلا يهتدي للجواب؛ لأنه ظالم.

جاءهُ الهَدْيُ المحمدي بالبيان والبرهان؛ فكذَّب واستكبر وأعرض وتجبَّر، وعرف الحق ولكنه لم يعترف ولم يُقِرَّ بذلك كِبْراً وعِنَاداً، فكان جزاؤه أن يُضلَّه الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وما كانَ الله لِيُضِلَّ قَوْماً بعد إِذْ هَدَاهُم حَتَّى يُبَيِّنَ لهم ما يَتَّقُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُوْدُ فَهَدَيْنَاهُم ﴾ - أي: بَيَّنَّا لهم الحق واضحاً جلياً بالحجة والبرهان - ﴿ فَاسْتَحَبُّوْا العَمَى على الهُدى ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونه كَما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهم وإِنَّ فَرِيْقاً مِنْهُم لَيَكْتُمونَ الحَقَّ وَهُم يَعْلمون ﴾.

فقد عَرَفُوا صدق النبي صلّى الله عليه وسلم، وأَنَّهُ حقاً رسول الله بآياته ومعجزاته، ولكنهم لم يعترفوا، وكتموا الحق، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُم لا يُكَذِّبُونَك ولكِنَّ الظَالِمِيْن بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُوْن ﴾، فمن جحد الحق - أي: أنكر الحق بعدما اتضح وعرفه فهو ظالم، قال تعالى: ﴿ ويُضِلُّ الله الظَّالمين ويَفْعَل الله ما يشاء ﴾.

روى الشيخان وأصحاب السنن عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال: «المُسْلم إذا سُئِل في القبر يشهد: أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذيْن آمَنُوا بالقَوْل الثَابِتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة ﴾ الآية.

أصوات المؤذنين تعلو في أجواء الدنيا مُدَوِّية بشهادة: لا إلَه إلاّ الله محمد رسول الله

روى الدارمي في (سننه) عن كعب أنه قال: نَجِدُهُ ـ أي: محمداً رسول الله ـ مكتوباً في التوراة: محمد رسول الله، لا فَظٌّ، ولا غليظ، ولا صَخّابٌ بالأسواق، ولا يَجزي بالسيئة السيئـة، ولكن يعفو ويغفر، وأُمَّتُه الحمادون، يُكَبِّرون الله عَزَّ وجَلَّ على كل نَجْدٍ ـ أي: مرتفع ـ ويَحمدونه في كل مَنْزلة، ويتأزّرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادي في جو السماء، صَفُّهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء، لهم بالليل دَوِيٌّ كدويِّ النحل، ومولده بمكة، ومُهاجره بطيبة، ومُلكه بالشام صلّى الله عليه وسلم. اهـ.

صوت بلال يدوِّي بشهادة لا إلَه إلاّ الله محمد رسول الله في أرض المحشر وجميع الأنبياء وأممها من الأولين والآخرين يعلنون الشهادة بـ لا إلَـه إلاّ الله محمد رسول الله

روى الطبراني والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «يُحشر الأنبياء على الدوابِّ ـ أي على إبل من الجنة حتى ينتهوا إلى المحشر ـ وأُبْعَث على البراق، ويُبعث بلال على ناقة من نوق الجنة، فينادي بالأذان مَحْضاً ـ أي: خالصاً[1] ـ وبالشهادةحَقّاً، حتى إذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله ـ شهد له المؤمنون من الأولين والآخرين، فَقُبِلَتْ ممن قبلت ـ أي: ممن قبلت منهم في الدنيا ـ وردَّت على مَنْ ردَّتْ»[2] أي: الذين كانوا في الدنيا قالوها نفاقاً.

(١) قال الزرقاني: أي: خالصاً من معارضة المنكرين في الدنيا، لكشف الغِطاء، وظهور الحق عَياناً، لأنه لا ينكره أحد في ذلك اليوم. اهـ.

(٢) انظر (المواهب) للحافظ القسطلاني، (والخصائص الكبرى) للحافظ السيوطي و (الفتح).

وأخرج ابن زَنْجُوْيَه في (فضائل الأعمال) عن كثير بن مُرّة الحَضْرمي قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «تُبعث ناقة ثمود لصالح فيركبها من عند قبره حتى توافي به المحشر، وأنا على البراق، واخْتُصِصْتُ به من دون الأنبياء يَومَئذٍ، ويُبعث بلال على ناقةٍ من نوق الجنة، ينادي على ظهرها بالأذان حقاً، فإذا سمعت الأنبياء وأممها: أشهد أن لا إلَه إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قالوا: ونحن نشهد على ذلك»[1].

وفي كتاب (ذخائر العقبى) للحافظ محب الدين الطبري ـ مما عزاه لتخريج الحافظ السِلَفي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال: «تُبْعَثُ الأنبياء على الدوابّ ـ أي: إبل من الجنة ـ ويُحشر صالح على ناقته، ويُحشر أبناء فاطمة على نَاقَتيَّ: العضباء والقصواء، وأُحشر أنا على البُراق، ويحشر بلال على ناقةٍ من نوق الجنة»[2].

استحباب الإكثار من الشهادة

روى أبو يعلى بإسناد جَيّد ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «أكثروا من شهادة أن لا إلَه إلّا الله قبل أن يُحال بينكم وبينها»[3].

(١) كما في (المواهب) و (الخصائص).
(٢) كما في (المواهب) وشرحها.
(٣) انظر (ترغيب) المنذري.

استحباب المواظبة على الشهادتين في المواضع الآتية وما ورد في فضل ذلك:

أولاً: عند الصباح والمساء:

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قال حين يصبح: اللهمّ إنّا أصبحنا نُشهدك ونُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك: أنَّك أنت الله الذي لا إلّه إلّا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك ـ غفر الله ما أصاب في يومه ذلك من ذنب، وإن هو قالها حين يمسي غفر الله له ما أصاب في تلك الليلة من ذنب» رواه الترمذي وأبو داود.

وروى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال حين يصبح أو حين يمسي: اللهمّ إنِّي أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك: أنَّك أنت الله الذي لا إلّه إلّا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك ـ أعتق الله ربعه من النار، فمن قالها مرتين أعتق الله نصفه، فمن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه، فمن قالها أربعاً أعتقه الله من النار»[1].

ثانياً: عقب الوضوء:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلّا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء».

قال الحافظ المنذري: رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وقالا: «فيُحْسن الوضوء».

---

(١) انظرهما في (الفتح الكبير).

وزاد أبو داود: «ثم يَرْفع طرفه إلى السماء ثم يقول»: فذكر الحديث المتقدم.

ورواه الترمذي كأبي داود وزاد: «اللهمّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين».

وروى أبو يعلى والدارقطني: عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «من توضأ فغسل يديه ثم مَضْمَضَ ثلاثاً، واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ومسح رأسه، ثم غسل رجليه ثم لم يتكلم حتى يقول: أشهد أن لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله غُفر له ما بين الوضوءين»[1].

ثالثاً: عند الأذان:

روى مسلم وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «إذا قال المؤذّن: الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر.

ثم قال: أشهد أن لا إلّه إلّا الله فقال: أشهد أن لا إلّه إلّا الله.

ثم قال: أشهد أن محمداً رسول الله. قال: أشهد أن محمداً رسول الله.

ثم قال: حَيَّ على الصلاة قال: لا حول ولا قوة إلّا بالله.

ثم قال: حيَّ على الفلاح، قال: لا حول ولا قوة إلّا بالله.

ثم قال: الله أكبر الله أكبر، قال: الله أكبر الله أكبر.

ثم قال: لا إلّه إلّا الله، قال: لا إلّه إلّا الله ـ مِنْ قلبه دخل الجنة».

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

وروى ابن زَنْجُوْيَه عن كثير بن مُرَّة الحضرمي مرفوعاً: «يُبعث بلال على ناقة من نوق الجنة ينادي على ظهرها بالأذان فإذا سمعت الأنبياء وأممها: أشهد أن لا إلّه إلّا الله وأن محمداً رسول الله قالوا: ونحن نشهد على ذلك». اهـ. كما في شرح المواهب.

وروى الدَيْلَمِيُّ عن علي رضي الله عنه قال: (رآني رسول الله صلّى الله عليه وسلم حَزيناً، فقال: «يا بن أبي طالب ما لي أراك حزيناً فمُرْ بعض أهلك يؤذِّن في أذنك فإنه دواءٌ لِلْهَمِّ» قال: فجربته فوجدته كذلك) ـ وقال كلٌّ من رُواته: جَرَّبته فوجدته كذلك[1].

وروى مسلم والترمذي واللفظ له عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلّى الله عليه وسلم رسولاً ـ غفر الله له ذنوبه»[2].

وروى الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من سمع النداء فقال: أشهد أن لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، اللهمّ صَلِّ على محمد وبلِّغه درجة الوسيلة عندك، واجعلنا في شفاعته يوم القيامة وجبت له الشفاعة»[3].

وأما التشهد في قعود الصلاة فهو واجب، وفيه يُشهد المصلي ربَّه ويُشهد رسوله صلّى الله عليه وسلم ويُشهد عباد الله الصالحين على شهادة أن لا إلّه إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

---

(١) انظر شرح (المواهب).

(٢) انظر (ترغيب) المنذري.

(٣) قال المنذري: وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان وهو ليِّن الحديث. اهـ.

فعلى المُصَلِّي أن يَشهد عن قلبٍ، وأن يُشْهِد على شهادته رَبّ العالمين الذي هو أمامه في قبلته، وأن يُشْهِد إمامه الذي هداه إلى رَبِّه وهُوَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وأن يُشهد جَميع الصالحين مِن عباد الله تعالى.

رابعاً: بعد الصلوات:

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول في دبر كل صلاة:

«اللهمّ رَبّنا وربَّ كل شيء أنا شهيد أنك الربُّ وحدك لا شريك له.

اللهمّ رَبَّنا وربَّ كل شيء أنا شهيد أن محمداً (صلّى الله عليه وسلم) عبدك ورسولك.

اللهمّ ربَّنا وربَّ كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخـوة[1].

اللهمّ ربنا وربَّ كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة في الدنيا والآخرة.

يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب ـ الله أكبر الأكبر، ﴿ الله نُورُ السموات والأرض ﴾.

الله أكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل الله أكبر الأكبر»[2].

خامساً: في مُفتتح الخطب الشرعية:

روى أبـو داود والنسـائي عن عبـد الله بن عَمْـرٍو بن العـاص

---

(١) يعني: أن العباد المؤمنين كلهم إخوة في الإيمان، وهذه الأخوة عقدها الله تعالى بينهم بقوله: ﴿ إنَّما المؤمنون إخوة ﴾ الآية، وهو سبحانه يُـطالبهم بحقوقها على بعضهم يوم القيامة.

(٢) رواه أبو داود كما في (جامع الأصول)، ورواه النسائي كما في (الترغيب) للمنذري.

رضي الله عنهما أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم خطب يوم الفتح بِمَكَّة على درجة البيت فقال في خطبته: «فكبَّرَ ثلاثاً، ثم قال: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، صَدق الله وَعْده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تُذكر وتدعى مِنْ: دَمٍ أو مالٍ تحت قدميَّ إلّا ما كان من سِقاية الحاج وسدانة البيت» الحديث[1].

وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل خطبة ليس فيها شهادة فهي كاليد الجَذماء».

سادساً: عند القيام من المجلس:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «مَنْ جَلس مجلساً كَثُر فيه لَغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك:

سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إلّه إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ـ إلّا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»[2].

وعن جُبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إلّه إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ـ فقالها في مجلس ذكرٍ كان كالطَابع يُطبع عليه، ومَنْ قالها في مجلس لَغْوٍ كان كفارة له».

قال المنذري: رواه النسائي والطبراني ورجالهما رجال الصحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

---

(١) انظر (جامع الأصول).

(٢) رواه أبو داود والترمذي واللفظ له كما في (الترغيب).

قال: ورواه ابن أبي الدنيا ولفظه: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «إذا جلس أحدكم في مجلس فلا يَبْرَحَنَّ منه حتى يقول ـ ثلاث مرات ـ: سبحانك اللهمّ وبحمدك، لا إلّه إلّا أنت، اغفر لي وتب عليَّ ـ فإن كان خيراً كان كالطابع عليه، وإن كان مجلس لغو كان كفارة لما كان في ذلك المجلس».

وعن رَافع بن خُدَيج رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يأمره إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إلّه إلّا أنت، استغفرك وأتوب إليك، عَمِلتُ سُوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت».

قال: قلنا: يا رسول الله إنّ هذه كلمات أُحْدِّثْتَهُنَّ؟.

قال: «أجل جاءني جبريل فقال: يا محمد هُنَّ كفارات المجلس»[1].

وفي هذه الأحاديث حَثٌّ على المحافظة على دعاء آخر المجلس لعظم فائدته.

استحباب الإكثار من قول لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له وما ورد في فضل ذلك

روى الشيخان عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «من قال: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير ـ عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من وَلد إسماعيل».

وعن عُمر بن سعيد عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن النبي

---

(١) رواه النسائي واللفظ له والحاكم وصححه، ورواه الطبراني في الثلاثة بسند جَيِّد كما في (ترغيب) المنذري.

صلى الله عليه وسلم قال: «خَيْر الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير». رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

ومِنْ ثَمَّ تعلم فضل هذه الصيغة التي هي خير ما قاله رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وهي خير ما قاله النبيّون قبله صلوات الله تعالى عليهم.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «مَنْ قال: لا إلّه إلّا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير ـ لم يسبقها عمل، ولم يبق معها سيئة»[1].

فهذه الصيغة لها أثر كبير في مغفرة الذنوب.

وروى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ قال: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يُحيي ويميت، وهو الحيُّ الذي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير؛ لا يريد بها إلّا وجه الله ـ أدخله الله بها جنات النعيم».

وروى الطبراني عن عبد الله بن أَبي أوْفى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «مَنْ قال: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، أحداً صمداً، ﴿ لم يَلِدْ ولم يُوْلد ولم يكن له كُفُواً أحد ﴾ ـ كتب الله له ألفي ألف حسنة».

وروى الترمذي عن تميم الداريّ رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ قال:

(١) رواه الطبراني ورواته محتجٌّ بهم في الصحيح كما قاله الحافظ المنذري.

أشهد أن لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، إلّهاً واحداً، أحداً صمداً، لم يَتَّخِذْ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له كُفُواً أحد ـ عشر مَرّات كتب الله لَهُ أربعين ألف ألف حسنة»[١].

تصديق الله تعالى عبده إذا قال: لا إلّه إلّا الله

روى الترمذي عن الأغرّ أبي سلم قال أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال:

«مَنْ قال: لا إلّه إلّا الله والله أكبر، صدَّقه ربه وقال: لا إلّه إلّا أنا وأنا أكبر.

وإذا قال: لا إلّه إلّا الله وحده، قال: يقول الله تعالى: لا إلّه إلّا أنا وحدي.

وإذا قال: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، قال الله: لا إلّه إلّا أنا وحدي لا شريك لي.

وإذا قال: لا إلّه إلّا الله، له الملك، وله الحمد، قال الله تعالى: لا إلّه إلّا أنا، لي الملك، ولي الحمد.

وإذا قال: لا إلّه إلّا الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، قال الله تعالى: لا إلّه إلّا أنا، ولا حول ولا قوة إلّا بي.

وكان يقول: من قالها في مرضه ومات منه لم تطعمه النار»[٢].

ومن المعلوم أنّ العبد إذا صدَّقه رَبُّه كان في دِيْوَانِ الصادقين.

---

(١) انظر (كتاب الدعوات) من (جامع) الترمذي وعزاه في (الفتح) إلى (مسند) الإمام أحمد.

(٢) انظر (جامع الأصول).

استحباب المواظبة على قول: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له ـ عشر مرات ـ عقب صلاة: الفجر والمغرب ـ والعصر في رواية ـ

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «من قال في دبر صلاة الفجر وهو ثانٍ رجليه قبل أن يتكلم: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيءٍ قدير ـ عشر مرات كَتب الله له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكان يومه ذلك كله في حِرْزٍ من كل مكروه، وحُرْسٍ من الشيطان، ولم يَنْبغ لذنبٍ أن يدركه[1] في ذلك اليوم إلّا الشرك بالله تعالى».

قال المنذري: رواه الترمذي واللفظ له وقال: حديث حسن غريب صحيح، والنسائي وزاد فيه: «بيده الخير». وزاد فيه أيضاً: «وكان له بكل واحدة قالها عَتق رقبة مؤمنة».

ورواه النسائي وزاد فيه: «مَنْ قالهنَّ حين ينصرف من صلاة العصر أعطيَ مثل ذلك في ليلته». اهـ.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم:

«مَن قال حين ينصرف من صلاة الغداة: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير ـ عشر مرات ـ أُعطيَ بهنَّ سبعاً:

---

(١) وفي رواية الطبراني بإسناد حسن عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ولم يَلْحَقْه في ذلك اليوم ذنب إلّا الشرك بالله».
وفي رواية أحمد عن عبد الرحمن بن غُنم رضي الله عنه: «ولم يَحِلَّ للذنب أن يدركه إلّا الشرك» انظر ذلك كله في (ترغيب) المنذري.

كتب الله له بهنَّ عشر حسنات، ومحا عنه بهنَّ عشر سيئات، ورفع له بهنَّ عشر درجات، وكنَّ له عَدل عشر نسمات، وكن له حِفْظاً من الشيطان، وحِرزاً منَ المكروه، ولم يلحقه في ذلك اليوم ذنب إلّا الشرك بالله تعالى.

ومن قالهنَّ حين ينصرف من صلاة المغرب أعطيَ مثل ذلك ليلته»[1].

وعن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «من قال إذا أصبح: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير ـ عشر مرات ـ كتب الله له بهنَّ عشر حسنات، ومحا له بهنَّ عشر سيئات، ورفع له بهنَّ عشر درجات، وكنَّ له عَدل عتاقة أربع رقاب، وكُنَّ له حَرَساً حتى يمس، ومن قالهنَّ إذا صلّى المغرب دبر صلاته فمثل ذلك حتى يصبح»[2].

وعن عبد الرحمن بن غُنْم رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال قبل أن ينصرف ويثني رجليه من صلاة المغرب والصبح: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيءٍ قدير ـ عشر مرات ـ كتب الله له بكل واحدة عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكانت له حرزاً من كل مكروه، وحرزاً من الشيطان الرجيم، ولم يَحلَّ للذنب أن يدركه إلّا الشرك، وكان من أفضل الناس عَمَلاً إلّا رجلاً يَفضله يقول أفضل مما قال»[3].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني بإسناد حسن واللفظ له كما في (ترغيب) المنذري.

(٢) رواه أحمد والنسائي وابن حبان في (صحيحه) وهذا لفظه وفي رواية له: «وكنَّ له عدل عشر رقاب».

(٣) قال الحافظ المنذري: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير شَهْر بن =

وعن عمارة بن شُبَيْب السبائي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «من قال: لا إلَه إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيءٍ قدير ـ عشر مرات ـ على إثر المغرب بعث الله له مَسْلَحَة[1] ـ أي: ملائكة مُسَلَّحين ـ يحفظونه من الشيطان حتى يصبح، وكتب الله له بها عشر حسنات موجبات، ومحا عنه عشر سيئات موبقات، وكانت له بعدل عشر رقبات مؤمنات».

قال المنذري: رواه النسائي والترمذي وقال: حديث حسن لا نعرفه إلاّ من حديث ليث بن سعد، ولا نعرف لعمارة سماعاً من النبي صلى الله عليه وسلم. اهـ.

فضل من قال: لا إلَه إلاّ الله وحده لا شريك له مائة مرة بعد صلاة الصبح

روى الطبراني في (الأوسط) بإسناد جَيِّد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «مَنْ قال دُبُر صَلاة الغداة: لا إلَه إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير ـ مائة مرة قبلَ أن يَثني رجليه كان يومئذٍ من أفضل أهل الأرض عملاً إلاّ مَنْ قال مثلَ ما قال، أو زاد على ما قال»[2].

= حَوْشَب، وعبد الرحمن بن غُنْم مختلف في صحبته، وقد رُوِيَ هذا الحديث عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. اهـ.

(١) قال العلاّمة ابن الأثير في شرح غريب هذا الحديث في (جامع الأصول): المَسْلحة: القوم يَحْفَظُون الثغور، سُمُّوا مسلحة لأنهم يكونون ذوي أسلحة يردُّون بها العدوَّ. اهـ.

(٢) كما في (ترغيب) المنذري.

استحباب قول لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له
عقب الصلوات المكتوبة عامَّة

عن مولى المغيرة بن شعبة قال: أملى عليَّ المغيرة بن شعبة في كتاب إلى معاوية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة:

«لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيءٍ قدير، اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولا مُعْطيَ لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ».

أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وزاد في رواية له بعد قوله وهو على كل شيءٍ قدير: «ثلاث مرات»[1].

وروى مسلم وغيره عن عُروة بن الزبير رضي الله عنهما كان يقول في دبر كل صلاة حين يسلِّم:

(«لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيءٍ قدير، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، لا إلّه إلّا الله ولا نعبد إلّا إيّاه، له النِّعْمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إلّه إلّا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»

قال: وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يهلِّل بهنَّ دبر كل صلاة)[1].

* * *

(١) انظرهما في (جامع الأصول).

استحباب قول لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له صباحاً ومساءً

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول إذا أمسى:

«أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، رَبِّ أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، ربِّ أعوذ بك من الكَسَلِ وسوء الكِبَر، ربِّ أعوذ بك من عذابٍ في النار وعذاب في القبر».

وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله».

وفي رواية: «رَبِّ أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكِبَر، وفتنة الدنيا، وعذاب القبر»[1].

وعن أبي عَيَّاش الزرقي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «مَنْ قال إذا أصبح:

لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير ـ كان له عدل رَقَبَةٍ مِنْ وَلد إسماعيل، وكتبت له بها عشر حسنات، وحط عنه عشر سيئات، ورفع له بها عشر درجات، وكان في حرز من الشيطان حتى يُمسي، وإذا قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح»[2].

---

(١) قال في (جامع الأصول): هذه رواية مسلم والترمذي، وفي رواية أبي داود: «سوء الكِبَر والكفر»، وفي رواية له: «سوء الكِبَر والكِبْر».

(٢) عزاه في (الفتح)، إلى أبي داود وابن ماجه والإمام أحمد.

استحباب الإكثار من قول: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له يوم عرفة

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان أكثر دعائه صلّى الله عليه وسلم يوم عرفة: «لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيءٍ قدير»[١].

استحباب قول لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له في المواضع الآتية:

أولاً: عند دخول الأسواق:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «مَنْ دخل السوق فقال:

لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير ـ كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة».

وفي رواية: «وبنى له بيتاً في الجنة». رواه الترمذي وقال: حديث غريب. اهـ.[٢].

ثانياً: إذا تَضوَّر من الليل ـ أي تَقَلَّبَ أو تلوَّىٰ:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم إذاتَضَوَّر من الليل قال: «لا إلّه إلّا الله الواحد

---

(١) كما في المسند والسنن.

(٢) قال المنذري: وإسناده متصل حسن، ورواته ثقات أثبات، وفي أزهر بن سنان خلاف. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به. وقال الترمذي في رواية له مكان: ألف ألف درجة: «وبنى له بيتاً في الجنة». ورواه ابن مَاجَهْ وابن أبي الدنيا والحاكم وصححه. إلخ، وعزاه في (الفتح) إلى الإمام أحمد أيضاً.

القهار، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفّار»[1].

ثالثاً: إذا قدم مِنْ حج، أو عمرة، أو سفر:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا قدم مِن غَزْوٍ أو حجٍ أو عمرة يُكبّر على كل شَرَفٍ من الأرض ـ ثلاث تكبيرات ثم يقول: «لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»[2].

أسماء كلمة لا إلّه إلّا الله

الأول: هي كلمة الشهادة:

روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلّه إلّا الله وأن محمداً رسول الله» الحديث.

وحُقَّ لها أن تكون كلمة الشهادة لله تعالى بالوحدانية والألوهية، ولسيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم بالرسالة؛ لأن ذلك ثابت قطعاً بالشواهد البرهانية والمشاهد العيانية.

ولذلك ترى أن الله تعالى كثيراً ما يأتي في القرآن الكريم بمشاهد آيات قدرته وعلمه وحكمته سبحانه، ثم يأتي بعد ذلك بالشهادة له بالألوهية والوحدانية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُم في الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيز الحَكِيم ﴾.

---

(١) رواه النسائي والحاكم كما في (الفتح) وغيره.

(٢) رواه الشيخان وغيرهما.

وكذلك ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يأتي بآيات الله تعالى الكونية المشهودة التي يجريها الله تعالى على يده صلّى الله عليه وسلم ثم يأتي بعد ذلك بالشهادتين:

ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسير فنفدتْ أزواد القوم حتى هَمُّوا بنحْر بعض حمائلهم، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو جمعتَ ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله تعالى عليها ففعل: فجاءه ذُو البرِّ ببُرّه، وذو التمر بتمره، وذو النواة بنواته، ـ قيل: ما كانوا يصنعون بالنوى؟، قال: كانوا يَمَصُّونه ويشربون عليه الماء ـ فدعا عليها حتى ملأ القوم مزاودهم، ثم قال صلّى الله عليه وسلم عند ذلك: «أشهد أن لا إلّه إلّا الله وأني رسول الله ـ لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما إلّا دخل الجنة»).

الثاني: وهي القول الثابت:

وتسمى كلمة: **لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله** صلّى الله عليه وسلم تسليماً ـ تُسمى بالقول الثابت قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذين آمَنُوا بالقَوْل الثَابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة ﴾. الآية.

وقد جاء بيان المراد بالقول الثابت المذكور في هذه الآية الكريمة ـ جاء عن صاحب البيان عن القرآن صلّى الله عليه وسلم.

فقد روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «المسلم إذاسُئِل في القبر تشهد أن لا إلّه إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذين آمنوا بالقَوْلِ الثَابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾». الآية.

وإنّما وُصفت بأنها القول الثابت: لأنها أثبت مِن كل ثابت، والثابتة بكل المثْبتات، بل هي المُثَبِّتَةُ لكل ثابت، فإن ما وافقها فهو

ثابت، وما خالفها فهو غير ثابت.

فهي أقوى اليَقِينِيَّات، وهي أثبت الثابتات، وهي ثابتة بكل الثابتات من المعلومات الثابتة في العلم، والموجودات المشهودة في الكون، ولا شيء أثبت منها، ولا أحق منها، ولا أقوى منها دليلاً، ولا أقطع منها برهاناً، ولا أعَزَّ منها سلطاناً.

الثالث: هي الكلمة الطيبة:

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِيْنٍ بإِذْنِ رَبِّها ويَضْرب اللَّهُ الأَمْثَال للناس لَعَلَّهُم يتذكرون ﴾.

والمراد بالكلمة الطيبة هنا هي: لا إلَه إلاّ الله، والمراد بالشجرة الطيبة ـ النخلة كما بَيَّن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى له: ﴿ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهم ﴾.

روى الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال: (أُتِيَ النبي صلى الله عليه وسلم بقِناع من بُسر فقال صلّى الله عليه وسلم: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ـ حتى بلغ تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حِيْنٍ بإِذْنِ رَبِّها ﴾ قال: هي النخلة.

﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ حتى بلغ: ﴿ ما لها من قرار ﴾ قال: هي الحنظلة»).

فهذه الكلمة الطيبة هي: لا إلَه إلاّ الله تتفرع عنها جميع الأقوال الطيبة، والأفعال الطيبة، والأخلاق الطيبة.

فبها طاب القلب فصار بَلَداً طيباً قال تعالى: ﴿ والبَلَدُ الطيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُه بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾.

وبها طابت أقوال المؤمن قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه ﴾.

وبها صارت أعمال المؤمن صالحة وطيبة وخيرة قال تعالى: ﴿ أُولئِكَ يُسَارِعُوْنَ في الخَيْراتِ وهُمْ لَهَا عَامِلُون ﴾، وقال صلّى الله عليه وسلم: «اللهمّ إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات»، وفي رواية: «اللهمّ إني أسألك فعل الطيبات» الحديث.

وبتلك الكلمة الطيبة طابت حياة المؤمن قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾.

وبها طابت نفس المؤمن، وقد أخبرنا الله تعالى عن تحيةِ الملائكةِ للمؤمنين حِين جاؤوا الجنة وقد فُتِحَت لهم أبوابها قال تعالى: ﴿ وَسِيْقَ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم إلى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوها وَفُتِحَتْ أَبْوَابُها وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُها: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوْهَا خَالِدِيْنَ ﴾.

لقد طابوا نفوساً وقلوباً وأرواحاً وأشباحاً وعقولاً وأسماعاً وأبصاراً، فهم الطيبون، ونساؤهم الطيبات.

﴿ وهُدُوْا إلى الطَّيبِ مِنَ القَوْلِ وَهُدُوْا إلى صِرَاطِ الحَمِيْد ﴾ وحَلُّوا في جَنَّةٍ طَيِّبَةٍ، ونزلوا في مساكن طيبة قال تعالى: ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةٍ في جَنَّاتِ عَدْن ﴾ الآية.

وأقاموا في جوار ربٍ كريم، طيب لا يقبل إلّا طيباً، ولا يقبل في جواره وجنته إلّا طيباً، قال صلّى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلّا طيباً» الحديث.

وأطيب الطيبين وأزكى الطاهرين الذي طاب به الطيبون؛ والذي هو منبع الطيب؛ هو سيدنا وحبيبنا وشفيعنا عند ربنا محمد صلّى الله عليه وسلم، أبو الطيب، وأبو الطاهر، ساكن طابة وطيبة، ولا أطيب ولا

أزكى منه، ولا أفضل ولا أكرم على الله تعالى منه، كما قال صلّى الله عليه وسلم: «وأنا أكرم الأولين والآخرين على ربي ولا فخر».

اللهمّ انفحنا بِطِيْبِهِ، وعُمَّنَا ببركاته، وادخلنا تحت لوائه صلّى الله عليه وسلم، كما يليق برفيع مقامه آمين.

وَيَرْحمَ اللَّهِ تعالى القائل:

لِـطيـبـةَ عَـرِّجْ إن بين قِبـابهـا   حَـبِـيـبـاً لِأَدْواء الـقـلـوب طـبـيـب
إذا لَمْ تَطب في طيبة عند طيب   بـه طـابت الـدنـيـا فـأين تـطـيب

الرابع: وهي الكلمة الباقية:

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَها كَلِمَةً بَاقِيَةً في عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْن ﴾.

روى ابن كثير عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كلمةً باقِيَةً في عقبه ﴾ يعني: لا إلّه إلّا الله، لا يزال في ذرية إبراهيم من يقولها.

قال: وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الخامس: هي كلمة التوحيد:

روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: أن يوحَّد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان والحج»[1].

وفي رواية له أيضاً: «على أن يُعْبَدَ الله ويكفر بما دونه» الحديث.

وروى مسلم عن طارق الأشجعي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «من قال: لا إلّه إلّا الله وكفر بما يعبد من دونِ الله ـ حَرُمَ ماله ودمه، وحسابه على الله».

---

(١) انظر (جامع الأصول).

وفي رواية له: «من وحّد الله» وذكر مثله[1].

السادس: هي كلمة التقـوى:

قال الله تعالى: ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾.

روى الترمذي وعبد الله بن أحمد في (زوائـد المسند)، وابن جرير، والبيهقي في (الأسماء والصفات) عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿ وأَلْزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوىٰ ﴾ قال: «لا إلّه إلّا الله».

وأخرج الإمام أحمد عن حُمران مولى عثمان رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إني لأعلم كلمةً لا يقولها عبدٌ حقاً من قلبه إلّا حرَّمه الله على النار».

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أنا أحَدِّثكم ما هي).

كلمة الإخلاص التي ألزمها الله تعالى محمداً صلّى الله عليه وسلم وأصحابه، وهي كلمة التقوى التي حَضّ عليها نبي الله صلّى الله عليه وسلم عمّه أبا طالب عند الموت: «شهادة أن لا إلّه إلّا الله»[2].

وإنما سميت كلمة التقوى لأنها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أسُّ كل تقوى) أي: هي تتفرع عنها جميع مراتب التقوى: تقوى القلوب، وتقوى الجوارح، وتقوى اللسان، ولأنها بها التوقي من النار لمن قالها حَقّاً مصدقاً من قلبه.

---

(١) انظر (جامع الأصول).

(٢) انظر (الدر المنثور) عند الآية، و(مجمع الزوائد).

السابع: وهي كلمة الإخلاص:

روى أبو داود وابن حبان في (صحيحه) عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقول إذا أصبح:

«أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد صلّى الله عليه وسلم، وعلى ملّة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[1].

قال ابن الأثير: الفطرة: ابتداء الخلقة، وهي إشارة إلى كلمة التوحيد حين أخذ الله تعالى العهد بها على ذرية آدم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قـالوا: بلى﴾ الآية.

وقيل :الفطرة ها هنا السنّة،قال: وكلمة الإخلاص: قول لا إلّه إلّا الله. اهـ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (سبحان الله هي صلاة الخلائق، والحمد لله كلمة الشكر، ولا إلّه إلّا الله كلمة الإخلاص، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال العبد: لا حول ولا قوة إلّا بالله قال الله تعالى: أسلم واستسلم)[2].

وقد خطب يوماً أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: قام فينا رسول الله صلّى الله عليه وسلم عام أوَّل ـ فخنقَتْه ـ (أبا بكر) ـ العبرة ثلاث مرات ـ ثم قال:

قال صلّى الله عليه وسلم: «أيها الناس سلوا الله المعافاة فإنه لم يعط أحد مثل اليقين بعد المعافاة».

وفي رواية للحديث من طريق آخر:

---

(١) انظر (جامع الأصول).

(٢) رواه رزين كما في (جامع الأصول).

«لن تؤتوا شيئاً بعد كلمة الإخلاص مثل المعافاة، فسلوا الله العافية، ولا أشدَّ من الريبة بعد الكفر، وعليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور وهما في النار»[1].

وفي حديث النسائي والحاكم عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء طويل:

«اللهمّ بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما عَلِمْتَ الحياة خيراً لي، وَتَوَفَّني إذا علمتَ الوفاة خيراً لي.

اللهمّ وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص في الرضى والغضب، وأسألك المقصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قُرَّة عينٍ لا تَنْقَطع، وأسألك الرضى بالقضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك، والشَوْق إلى لقائك في غير ضَرّاء مُضِرَّة ولا فِتنةٍ مُضِلَّة.

اللهمَّ زيّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هُدَاةً مهتدين»[2].

الثامن: هي المثل الأعلى:

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِيْ يَبْدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلى في السمَوَاتِ والأَرْض وَهُو العَزِيْز الحكيم ﴾.

روى عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ ولَهُ المثل الأعلى ﴾. قال: شهادة أن لا إلّه إلاّ الله.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في معنى الآية قال: إنّه لا إلّه إلاّ هو.

---

(١) انظر (زوائد ابن حبان): (موارد الظمآن)، وعزاه في (الفتح الكبير) للبيهقي.
(٢) انظر (الفتح الكبيـر).

وعن مالك عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى: ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ قال: لا إلّه إلاّ الله. اهـ.

فالمثل الأعلى في الآية هو لا إلّه إلاّ الله، وذلك أن المراد بالمثل هنا ـ الوصف نظير قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ التِيْ وُعِدَ المتقون ﴾ ـ أي: صفتها ـ ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وظِلُّهَا ﴾. الآية.

وقوله تعالى: ﴿ مُحمد رَسُوْلُ اللَّهِ والذِيْن مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم تَرَاهُم رُكَّعَاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله ورِضْوَاناً سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود ذَلِكَ مَثَلُهُم في التوراة ﴾ ـ أي: هذا وصفهم في التوراة.

فقوله تعالى: ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ ـ أي: الوصف الأعلى وهو لا إلّه إلاّ الله، لأن الألوهية هي أصل الصفات، وأجلّ الكمالات وأعلاها، فله وحدانية الألوهية حقاً، وهذا الوصف لا يكون إلاّ لربِّ العالمين خالقهم وبارئهم ومصورهم ورازقهم....

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلى في السمٰوات والأرض ﴾.

يعني: أن آيات ربوبيته وأدلة وحدانيته في ألوهيته هي ظاهرة في السماوات والأرض، فما مِن شيءٍ في السماوات وفي الأرض إلاّ وهو آيةٌ شاهدة لله تعالى بأنه لا إلّه إلاّ الله، فلو استمعت إلى كل شيء، وأُعطيت الفهم عنه لسمعته يَشهد أن لا إلّه إلاّ الله، ولو أنك نظرت إلى كل شيء وفكَّرْت في خلقه لشاهَدْتَ فيه شواهد لا إلّه إلاّ الله.

وقد بين الله تعالى لنا ذلك في قوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَمٰواتُ السَبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ وإِنْ مِنْ شَيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكِنْ لَا تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ إنَّه كَانَ حليماً غفوراً ﴾.

فهو سبحانه عليم بكل شيء، وهو معلوم في كل شيء، ولذلك

سمّيَ ما سوى الله تعالى عالَماً، أي لأنه علامة على الله تعالى يُعلم بها خالقه، ولذا قيل:

فَوا عجباً كيف يَعصى الإ * لَه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كلّ تحريكة وتسكينةٍ * أبداً له شاهد
وفي كل شيءٍ له آية * تدل على أنه واحد

والقول الثاني في تفسير: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمٰوات والأرض﴾ - أي: له سبحانه مِن كل وصفين متقابلين أكملهما، ومن كل أوصاف الكمال أعلاها، على وجه انفرد به سبحانه.

فهناك الأوصاف المتقابلة كالقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعز والذل، فله جلَّ وعلاّ صفات الكمال: القدرة والقوة والعز، وله تعالى أعلى صفات الكمال، على وجه لا يشاركه ولا يساويه فيه غيره، فلا شريك ولا مثيل له في قدرته، ولا في قوته، ولا في عِزِّه، ولا في سمعه، ولا في بصره؛ إلى ما هنالك من الكمالات - وهذا القول لا يُنافي القول الأول.

والقول الثالث في تفسير ﴿ولَهُ المثل الأعلى في السمٰوات والأرض﴾ - أي: له الوصف الأعلى الذي تَجَلَّتْ أنواره على قلوب أهل السماوات والأرض فعرفوه وآمنوا به.

قال الحافظ ابن كثير: وأنشدوا في ذلك:

إذا سكنَ الغدير على صفاءٍ وجَنِّب أن يحركه النسيم
بَدَتْ فيه السماء بلا امتراءٍ كذاك الشمسُ تبدو والنجوم
كذاك قلوبُ أرباب التجلِّي يُرىٰ في صفوها الله العظيم

والقول الرابع في معنى الآية الكريمة: ﴿وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض﴾ - أي: له المثل الأعلى الدال على قدرته على إعادة الخلق - ذلك المثل الظاهر في خلق السماوات والأرض فإنها أكبر

من خلق الناس، فإن كانت إعادتهم بعد الموت أعظم من البَدْءِ وأكبر فلقد خلق سبحانه ما هو أكبر وهو السماوات والأرض، وإن كانت الإعادة مثل البدء فالذي قدر على البدء يقدر على الإعادة بلا شك.

التاسع: هي دعوة الحق:

قال سبحانه: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ ﴾. الآية.

روى ابن جرير وغيره عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿ لَهُ دعوة الحق ﴾ قال: (التوحيد: لا إلّه إلّا الله).

وروى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَة الحق ﴾ قال: (شهادة أن لا إلّه إلّا الله).

العاشر: هي كلمة العهد عند الرحمن:

قال تعالى: ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدَاً ﴾.

روى ابن جرير وابن المنذر والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ إلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرحمن عَهْداً ﴾ قال: (شهادة أن لا إلّه إلّا الله، وتبرأ من الحول والقوة، ولا يرجو إلّا الله تعالى).

وروى الطبراني عن ابن عمـــر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال لا إلّه إلّا الله كان له بها عهد عند الله» الحديث كما في (الترغيب).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال:

«من قال: اللهمّ ربَّ السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة،

إنِّي أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أني أَشهد أن لا إلٓه إلاّ أنت وحدك لا شريك لك، وأنَّ محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تَكِلْني إلى نفسي تقربني إلى الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلاّ برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد ـ إلاّ قال الله عَزَّ وجَلَّ يوم القيامة لملائكته: إن عبدي عهد عندي عهداً، فأوفوه إيّاه، فيدخله الله عَزَّ وجَلَّ الجنة»[1].

وروى الحكيم الترمذي عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم:

«من قال في دبر كل صلاة ـ بعد ما سلّم هؤلاء الكلمات: كتبه الملك في رقٍّ، فختم بخاتم ثم دفعها إليَّ يوم القيامة، فإذا بَعث الله العبد من قبره جاءه الملك ومعه الكتاب ينادي: أين أهل العهود حتى تدفع إليهم؟.

والكلمات أن تقول: اللهمّ فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، إني أعهد إليك من هذه الحياة الدنيا: بأنك أنت الله الذي لا إلٓه إلاّ أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فلا تكلني إلى نفسي، فإنك إنْ تكلني إلى نفسي تقرِّبني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلاّ برحمتك، فاجعل رحمتك لي عهداً عندك تؤدِّيْه إليَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد».

وجاء عن طاووس أنه أمر بهذه الكلمات فكتبتْ في كفنه[2].

الحادي عشر: وهي الكلمة العليا:

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذينَ كَفَرُوا السّفْلَى، وكَلِمَةُ اللَّهِ

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، إلاّ أن عَون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود. اهـ.

(٢) انظر (الدر المنثور) عند الآية الكريمة.

هِيَ العُلْيَا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يعني بكلمة الذين كفروا: الشرك، وكلمة الله هي: لا إلّه إلّا الله).

وفي (الصحيحين) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً ـ أيّ ذلك في سبيل الله؟،

فقال صلّى الله عليه وآله وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

فلا إلّه إلّا الله هي العليا فوق الكلمات كلها ولا أعلى منها.

الثاني عشر: وهي كلمة العدل:

قال تعالى: ﴿ إنّ الله يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحْسَان وإِيْتَاءِ ذِي القربى ﴾ الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يأمر بالعَدْل ﴾ قال: (شهادة أن لا إلّه إلّا الله).

وهذا تفسير لأول ما يتناوله العدل، فالعدل في الآية عام، وأوّل ما يراد به ـ العدل في التصديق بالعقيدة والشهادة، وذلك هو الإيمان والاعتقاد، والشهادة بأن لا إلّه إلّا الله فإنها أعدل العدل وعنها تتفرع فصول العدل.

ومن المعلوم أن العدل مقابل بالظلم، فالتوحيد هو حقيقة العدل الإيماني والاعتقادي، فالتوحيد هو العدل في الحكم العقلي.

ويقابله الشرك فإنه ظلم عظيم، قال تعالى: ﴿ وإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

فالظلم كل الظلم هو الشرك، فإنه ظلم في الحكم الشرعي

والعقلي والإيمان القلبي، وهو ظلم عظيم لأنه وضع الألوهية ـ التي هي فوق كل المراتب ـ في غير موضعها؛ وهو الشريك المفترى، فكما أن الشرك ظلم عظيم، فإن التوحيد هو العدل القويم، فهو يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُر بالعَدْل ﴾ دخولاً أوّلياً، كما قال حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿ والكَافِرُوْنَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾، فمن قال: لا إلّه إلّا الله فقد جاء بالعدل، لأنه أثبت الحقَّ وهو الألوهية لمستحقِّها وهو الله تعالى؛ الربُّ الخالق البارىء المصوِّر، ومن أشرك معه غيره فقد ظلم لأنه أعطى الألوهية لمن لا يستحقها.

اقتضاء لا إلّه إلّا الله: أن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلم:

اعلم أن هذه الكلمة العظيمة هي تقتضي اقتضاءً أوَّلياً من ذات معناها ـ أنَّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

وذلك أنَّ معنى لا إلّه إلّا الله هو: أنَّه لا معبود حقاً يجب أن يُعبد إلّا الله تعالى، فهو سبحانه المعبود وحده الذي يجب على العباد أن يعبدوه، وذلك حَقٌّ له عليهم باعتبار أنّه ربهم وهم عباده.

إذاً هذه الكلمة العظيمة تدلُّ أولاً: على أنه سبحانه هو وحده الإلّه المستحق للعبادة، وتدل ثانياً: على أنه يجب على العباد أن يعبدوه قياماً بحقه عليهم.

كما جاء في (الصحيحين) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الدابَّةِ فقال لي: «يا معاذ» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «أتدري ما حق الله على عباده»؟، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً».

ثم سكت ساعة فقال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً»؟، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن لا يعذِّبَهم».

فهذا الحق الواجب على العباد أن يُؤَدُّوه، وهو عبادة الله تعالى، لا تُعلم كيفيتها؛ ولا نوعيتها؛ ولا كميتها؛ ولا صفتها؛ ولا صيغ أقوالها؛ ولا هيئآت أفعالها: إلا بتعاليم من الله تعالى، لأن عبادة الله تعالى فيها الثناء على الله تعالى، والحمد لله، والتحيات له، والتعظيم له، وهذا كله لا يمكن العبد أن يهتديَ إليه سبيلاً إلاّ بهدىً وتعليمٍ من الله تعالى، وذلك بأن يوحي إلى رسوله صلّى الله عليه وسلم تبليغ ذلك للناس، ويعلمهم ما يجب عليهم مِنْ عبادة الله تعالى، وكيفيتها، وكميتها، وأوقاتها، وأعدادها، وأنواعها: البدنية، والمالية، والقلبية، والأدبية، والخلقية، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكِ مِنْ رَسُولٍ إلاّ نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّه لاَ إِلَهَ إلاّ أنا فاعْبُدُون ﴾.

والعبادة تشتمل على أبلغ التعظيم، وأكبر الإجلال، وأعلى الثناء، وأكمل الحمد؛ لله ربِّ العالمين، مع ملاحظة العبودية لله تعالى.

وهذا التعظيم لله تعالى والإجلال له، والإكبار والثناء عليه والحمد له، لا يعلم إلا بتعليم من الله تعالى؛ لأن الله تعالى ليس مثل عباده حتى يعظم ويثنىٰ عليه بمثل ما يثني به العباد على بعضهم، فإنه ليس كمثله شيء، فلا يُحمد ولا يمدح بمثل ما يمدح به المخلوقات.

ولا أن يوصف بما يوصف به المخلوقات، ولا أن يسمى بما يسمى به المخلوقات، بل بما يرتضيه لنفسه سبحانه فيما شرعه، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الحُسْنَى فادْعُوْهُ بِهَا ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّه الأَمْثَال إنَّ الله يَعْلم وَأَنْتُمْ لا تعلمون ﴾.

فلا يجوز أن يوصف لقوته بأنه بطل أو شجاع، ولا يوصف لسعة كرمه بأنه بحر - إلى غير ذلك.

بل يوصف ويُثنى عليه بما شرعه على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلم، على المعنى الذي يليق بكماله، بلا تشبيه ولا تعطيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البصير﴾، أي: فهو السميع البصير، لكن سمعه وبصره لا كسمع المخلوقات وبصرهم، فإنه ليس كمثله شيء، وهكذا هو: القويّ المتين، والعزيز القدير، وليس كمثله شيء في ذلك كله.

كما أنه لا يُحَيًّا بالسلام كما يحيًّا به العباد، بل يُحيًّا بما جاء عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم من التعاليم في ذلك:

جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «لا تقولوا السلام على الله، إنَّ الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات» الحديث.

فكانوا يحيُّون الله تعالى بالسلام كما يحيُّون عباد الله تعالى، فنهاهم عن ذلك، وعلَّمهم كيف يحيُّون ربَّ العالمين.

وهكذا في العبادات العملية والقولية، فإنه لا يُعبد ولا يُتقرب إليه إلّا بما رضيه لنفسه - وهو ما شرعه سبحانه.

وإذا اتضح لك أيها العاقل هذا علمت أنَّه لا بد من رسول يوحي الله تعالى إليه، ويُنَزِّل عليه الشريعة، ويعلمها للناس، وبذلك يعلمون كيف يعبدون الله تعالى، ويُؤَدُّون حق الله تعالى عليهم، وهو عبادتهم له وحده تحقيقاً: لِلاإلَه إلّا الله.

إذاً حقاً أن لا إلَه إلّا الله، تَقتضي محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم تسليماً، أرسله الله تعالى، فجاء برسالة عامَّةٍ إلى العباد، فيها بيان كيفيات العبادات التي يَتقربون بها إلى الله تعالى، فإن

حق الله تعالى على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فلا بد من معرفة كيفية أداء هذا الحق بواسطة رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

كما أنّ لا إلّه إلاَّ الله تقتضي وتستلزم محمداً رسول الله، لأن الله تعالى هو الإلّه الحق، والملك الحق، فلا بدَّ أن يتعهد عباده بما يصلح أمورهم، ويسعدهم برسالة فيها بيان مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم، وبيان ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، وبيان الحقوق فيما بينهم ليعيشوا في الدنيا عيشة طيبة هنية سعيدة، ثم ينقلبوا إلى آخرتهم فيدخلوا جنة عدن التي أعدَّها الله تعالى لهم، دار العز والكرامة في جوار ربِّ العالمين، ﴿ في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾.

وذلك كله مقتضى أنه لا إلّه إلاَّ الله، كما قال سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثَاً وَأَنَّكُمْ إلَيْنَا لاَ تُرْجَعُون، فَتَعَالَى الله المَلِكُ الحَقُّ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيْم ﴾.

فهو سبحانه الملك لا إلّه إلاّ هو، ومن حكمته أن لا يترك عباده عبثاً دون أن يتعبَّدهم بالتشريع المشتمل على الأوامر التي فيها سعادتهم وصلاحهم ونجاحهم، وعلى المناهي التي فيها فسادهم وضررهم، بل لا بدَّ أن يُبَيِّنَ لهم ذلك، ويَشْرع لهم الأحكام التي فيها أكمل النظام والانتظام، وفيها بيان الحقوق والواجبات بين بعضهم، وتُبيِّن لهم سبل السعادة في تعايشهم ومعاملاتهم، لا بُدَّ أن يُبَيِّن لهم ذلك لأنه هو الله الملك الحق، لا إلّه إلاَّ هو رب العرش الكريم.

وهذا البيان إنما يكون بواسطة رسول من عنده؛ فَبِعْثَة رسول الله صلّى الله عليه وسلم هي المقتضى المحتَّم من كلمة: لا إلّه إلاَّ الله.

وإنَّ كلمة لا إلّه إلاَّ الله تستلزم محمداً رسول الله، وإن محمداً رسول الله ملازمة للاإلّه إلاّ الله.

ونسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يُلْزِمَنا هاتين

الشهادتين، وأن يصبغنا بأنوارهما، وأن يجعلنا من الذين قال فيهم: ﴿ وأَلْزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوَى وكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾، وما ذلك عليك يا ربَّنا بعزيز.

الله تعالى يعلن شهادته بأن لا إلَه إلَّا الله محمد رسول الله في آياته التدوينية، وفي آياته التكوينية

لقد أعلن الله تعالى شهادته أنه لا إلَه إلَّا هو ـ معلناً ذلك في محكم آياته القرآنية إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ والملائِكَةُ وأُولوا العِلْمِ قَائِماً بالقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْم ﴾، وهذه أعظم الشهادات بأنه لا إلَه إلَّا الله.

جاء عن الكلبي أنه قال: لما ظهر رسول الله صلّى الله عليه واله وسلم بالمدينة، قدم عليه حَبْران من أحبار الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي صلّى الله عليه وآله وسلم الذي يخرج في آخر الزمان.

فلما دخلا على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم عرفاه بالصفة والنعت ـ أي: الواردين في الكتب السابقة ـ فقالا له: أنت محمد؟، قال: «نعم»، قالا: أنت أحمد؟، قال: «نعم»، فقالا: إنا نسألك عن شهادةٍ فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدّقناك، فقال لهما رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «سَلاَني».

فقالا له: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله تعالى ـ أي: في كتب الله تعالى النازلة على رسله صلوات الله تعالى عليهم ـ.

فأنزل الله تعالى الآية: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فأسلما[1].

---

(١) انظر تفسير الألوسي وغيره.

كما أنه سبحانه أعلن شهادته بأن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم في محكم آياته القرآنية إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُل: أَيُّ شَيءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ: اللَّهُ شَهِيْدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآن لِأُنْـذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغ ﴾ الآيـة. وهذه أكبـر الشهادات بـأن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

وقال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُل: كَفَىٰ باللَّهِ شَهِيْداً بَيْنِيْ وبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكتاب ﴾.

ويقول سبحانه: ﴿ هُوَ الذي أَرْسَل رَسُوْلَهُ بِالهُدَىٰ وَدِيْنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَكَفَى بالله شهيداً مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ الله ﴾ ـ الآية ـ صلّى الله عليه وآله وسلم.

وكما أعلن سبحانه تلك الشهادتين في آياته التدوينية ـ فإنه أعلنهما في آياته التكوينية: النفسيَّة والآفاقية:

فيقول سبحانه في آياته النفسية: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُوْنِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

فتطوير الأجنة في أرحام الأمهات، وتخلُّقها خلقاً من بعد خلق، حتى يتم ويكمل خلقها، المستعد لنفخ الروح ثم الحياة في هذا العالم الدنيوي ـ ذلك أمر يحتاج إلى خَلّاق ومطوِّر عليم حكيم؛ ألا وهو الله العليم الحكيم.

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ في الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيْز الحكيم ﴾

فهو الذي خلق الإنسان وطوّره، وخلقه خلقاً من بعد خلقٍ، وصَوَّر كل إنسان في صورة، وجعل لكل إنسان هيئةً وصوتاً ومزاجاً ـ وهذا أمر

مشهود، يشاهد فيه العاقل قدرة الله تعالى، وعلمه وحكمته، ويعلم حقاً أنه لا إلَه إلّا الله.

فإنك ترى الإخوة الذين هم من أب واحدٍ وأمٍّ واحدة، وخلقوا من ماءٍ واحدٍ، في بطن واحدةٍ ـ ترى كل واحد له صورة ومَزاج وصوت يختلف عن غيره، وذلك دليل على أن هناك إلَهاً يصوِّر كيف يشاء، ويميز المخلوقات بعضها عن بعض بما شاء، إذْ لو كان طبيعة لكانوا كلهم في الصورة؛ والكم؛ والكيف؛ والصوت على سواء، لأن الماء واحد، والرحم واحدة.

ويقول سبحانه معلناً شهادته في آياته التكوينية الآفاقية: ﴿ بَدِيْعُ السَّمٰوات والأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْء وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيْل ﴾.

وهذا أمر مشهود، إنَّ أحداً لا يستطيع أن يخلق شيئاً من العدم: صغيراً أو كبيراً ولا ذَرَّةً؛ وإنما الخالق لكل شيء هو الله الخالق ـ وليس بمخلوق.

وقد أعلن سبحانه شهادته بأن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلم في آياته التكوينية: وذلك فيما أجراه الله تعالى من المعجزات التي صَدَّق الله تعالى نبيه محمداً صلّى الله عليه وسلّم، وأيده بها، وجعلها حجة على من أنكر أنَّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فمنها المعجزات السماوية: كانشقاق القمر، وإمطار المطر فور دعائه؛ قبل أن يضع يديه من الدعاء، وبقي أسبوعاً، حتى دعا بإمساكه.

ومنها الأرضية: كالشجرية، والطعامية، والمائية، والجمادية.

ومنها المعجزات العقلية، والسمعية، والبصرية.

ومنها عصمته من القتل ـ ومنها ومنها وهذا باب واسع كبير يحتاج إلى مصنفات كثيرة، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لخدمتها، وفي ذلك كله

يعلن الله تعالى شهادته بأن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولذلك كان صلّى الله عليه وسلم يعلن بتلك الشهادة عند ظهور المعجزة:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي صلّى الله عليه وآله وسلم في مسيرٍ فنفدت أزواد القوم، حتى هَمُّوا بنحر بعض حمائلهم، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوتَ الله عليها، ففعل صلّى الله عليه وآله وسلم، فجاء ذو البُرِّ ببُرِّه، وذو التمر بتمره، وذو النواة بنواته، ـ قيل: ما كانوا يصنعون بالنوى؟، قال: كان يَمَصُّونه ويشربون عليه الماء ـ فدعا عليها صلّى الله عليه وسلم ـ أي دعا الله تعالى ـ وبارك عليها، حتى ملأ القوم مزاودهم، ثم قال صلّى الله عليه وسلم عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما إلّا دخل الجنة»).

وقد نطقت الشجر والمدر والحجر برسالته صلّى الله عليه وآله وسلم، وذلك على مسمع من الصحابة رضي الله عنهم:

روى الترمذي وحَسَّنَه عن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه قال: (كنت مع النبي صلّى الله عليه وسلم؛ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله صلّى الله عليه وسلم: جبل ولا شجر إلّا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله)[١].

وروى البزار وأبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «لما أوحي إليَّ جَعلت لا أَمُرُّ بحجر ولا شجر إلّا قال: السلام عليك يا رسول الله».

وروى الحاكم بإسناد جَيِّدٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كنا مع النبي صلّى الله عليه وسلم في سفر فأقبل أعرابي، فلما دنا منه

(١) قال الحافظ الزرقاني: ورواه الدارمي والحاكم وصححه.

قال له صلّى الله عليه وسلم: «أين تريد؟»، قال: إلى أهلي.

فقال له صلّى الله عليه وسلم: «هل لك إلى خير؟»، قال: وما هو؟، قال: «تشهد أن لا إلّه إلَّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله»، فقال الأعرابي: هل لك من شاهد على ما تقول؟، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «هذه الشجرة ـ وهي على شاطىء الوادي»، فأقبلت ـ الشجرة ـ تَخُدُّ الأرض خَدّاً ـ أي: تشق الأرض ـ فقامت بين يديه صلّى الله عليه وسلم، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت ـ أي: شهدت له بأنه رسول الله ثلاث مرات ـ ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه وقال: يا رسول الله إن يتبعُوْني آتك بهم، وإلّا رجعتُ إليك وكنت معك)[1].

وقد نطقت الحيوانات شاهدة برسالته صلّى الله عليه وسلم، ومن ذلك قصة الذئب التي جاءت عن أربعة من الصحابة، وهم: أبو هريرة، وأنس، وابن عمر بن الخطاب، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم كما نَصَّ على ذلك الحافظ القسطلاني وغيره.

قال القَسْطَلَّانِيُّ: فأما حديث أبي سعيد فرواه الإمام أحمد بإسناد جَيِّد[2] ولفظه:

قال أبو سعيد: (عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه ـ أي: ألصق أليبه في الأرض ونصب ساقيه ـ وقال ـ الذئب ـ للراعي: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إليَّ؟، فقال الراعي: يا عجباً ذئب مُقْعٍ على ذنبه يكلمني

---

(١) قال في (المواهب) وشرحها: ورواه الدارمي والبزار والبيهقي، وأبو القاسم البغوي. اهـ.

(٢) قال الزرقاني: جَيِّد أي: مقبول، وكذا رواه الترمذي والحاكم وصححاه. اهـ.

بكلام الإنس؟!!، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك، قال: وماذا أعجب؟.

فقال الذئب: محمد بيثرب ـ أي: في المدينة المنورة، كانوا يسمونها بذلك، فنهاهم صلّى الله عليه وسلم عن ذلك ـ محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق.

قال أبو سعيد: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها ـ أي: الغنم ـ إلى زاوية من زوايا المدينة، ثم أتى النبي صلّى الله عليه وسلم فأخبره، فنودي: بالصلاة جامعة، ثم خرج صلّى الله عليه وسلم وقال للأعرابي: «أخبرهم» فأخبرهم) ـ أي: بقصة كلام الذئب ـ وفي رواية أبي نعيم والبخاري في تاريخه: (فقال الذئب: أعجب من ذلك رسول الله بين هذه النخلات ـ يدعو إلى الله تعالى)[1].

كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الشهادتين وشواهدهما ومشاهدهما

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوْا رَبَّكُمُ الَـذِي خَلَقَكُمْ وَالذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ. الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشَاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقَاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادَاً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون. وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوْا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوْا فَاتَّقُوا النَّارَ الّتِيْ وَقُوْدُها النَّاس وَالحِجَارَةُ أُعِدَّت للكَافِرِيْن﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة بيّن الله تعالى شواهد حَقِّيَّة أُلوهِيَّتِهِ ووحدانيته في ذلك، وأنه الإلّه الذي يُعبد حقاً، ذلك لأنه هو الرب الخالق وحده لا ربَّ غيرُه، فلا إلّه يُعبد غيره.

---

(١) كما في شرح (المواهب)، ونقل عن ابن عبد البر وغيره أن الذئب كَلَّم ثلاثة من الصحابة: رافع بن عُميرة، وسلمة بن الأكوع، وأهبان بن أوس.

وأشهد العباد مشاهد لا إلٰه إلاَّ الله وذلك أنه سبحانه هو الذي خلق الأبناء والآباء، والأجيال المتأخرة والمتقدمة، وهو الذي أَمدَّهم بما يحتاجونه وما يتوقف عليه وجودهم وحياتهم، فجعل لهم الأرض فراشاً يفترشونها، وبساطاً يَسْلُكون منها سُبُلاً فِجاجاً، ومِهاداً مُمَهَّدة لهم للزرع والغرس والسير فيها؛ والحطِّ والتَّرحال على ظهرها، وجعل سبحانه لعباده السماء بناء سقفاً محفوظاً، مزيَّناً بمصابيحِ الكواكبِ ـ غير موحشة ولا مظلمة، وأنزل من السماء ماءً فأخرج بذلك الماء الواحد أنواعاً من الثمرات المختلفة في ألوانها وطَعمها وخصائصها ومنافعها، رِزقاً للعباد، يَتَغَذَّوْنَ به فيأكلون وينعمون، وجعل تلك الثمرات موزَّعةً على فصول السنة حسب ما تتطلب الأجسام، وحسب ما تحتاجه من مواد غذائية، وحسب ما تدعـو إليه حاجة الجسم في ذلك الفصل، إلى ما وراء ذلك مما يطول تفصيله.

ثم إن الله تعالى بعدما بيَّن في هذه الآيات الكريمة دلائل ألوهيته ووحدانيته بَيَّن دلائلَ صدق نبوة رسوله سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، ودلائل صدق كتابه الذي جاء به من عند الله تعالى فقال تعالى: ﴿ وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورةٍ من مِثْله ﴾ الآيات.

والمعنى أنّ هذا القرآن الكريم الذي جاء به رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلم ـ هو كلام الله تعالى المعجز، نَزَّله على عبده ورسوله محمد صلّى الله عليه وسلم، فَإن كنتم في رَيب أي: شك في ذلك فأتوا بسورة من مثله وعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله تعالى، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَادْعُوا مَنِ استَطَعْتُم مِنْ دُوْنِ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين ﴾ أي: فأجمعوا لذلك واستعينوا على ذلك بجميع الفصحاء والعقلاء والحكماء من خلق الله تعالى كلهم، فإنكم لا تستطيعون أن تأتوا بسورةٍ من مثله، لأنه كلام الله تعالى، أنزله

على وصفٍ معجز مُبايِنٍ لأوصاف كلام المخلوقات لا يشبه نظم الرسائل، ولا نظم الخطب، ولا نظم الأشعار، ولا هو كأسجاع الكُهَّان ـ فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.

ومِنْ ثَمَّ جاء التحدي بهذا في مكة مَرَّات عديدة، ثم في المدينة مرات عديدة، مع شدة عداوة أعدائه صلّى الله عليه وسلم وكثرتهم وبغضهم لدينه، ومع ذلك فقد عَجَزوا عن الإتيان بسورة من مثله.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَنْ تَفْعَلُوا ـ ﴾ فَسجَّل عليهم العجزَ المؤبَّد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه معجزة أخرى، وهو أنه سبحانه أخبر خَبَراً جازماً قاطعاً أنَّ هذا القرآن لا يُعارَض بمثله أبدَ الآبدين، ودهرَ الداهرين، وكذلك كان الأمر، كما أخبر فإنه لم يُعارَض إلى زماننا هذا، إلى أبد الآبدين.

ومن المعلوم أنَّ فصحاء العرب المنكرين رسالة سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم لمَّا تَحَدَّاهُم طالت لهم المدة وامتد لهم الانتظار في ذلك، واشتدت عليهم الوقائع والحروب بين النبي صلّى الله عليه وسلم، فقُتِلتْ صناديدهم، وسُبِيَتْ ذَرَارِيْهم ونساؤهم، وسُلبت أموالهم، ومع ذلك لم يستطع أحد أن يتقدم لمعارضته، فلو كانوا قادرين على المعارضة لافْتَدَوْا بها أنفسهم وأولادهم وأهليهم وأموالهم، وقد كانوا أهل لسان وفصاحة، وشعر وخطابة، ولكنهم عاجزون أن يأتوا بمثله، وصدق الله تعالى في خبره حيث سَجَّل عجزهم في قوله: ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾.

وفي هذا دليل قاطع أيضاً على أنَّ هذا القرآن الكريم هو كلام الله تعالى حقاً، ولا يمكن أن يكون من كلام سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم ولا من تلقاء نفسه.

وذلك أن النبي صلّى الله عليه وسلم قد أُوتي قُوَّةً في العقل، وقوة

في الفكر، وبعداً في النظر، وسداداً في الرأي، دلّ على ذلك مواقفه ومشاهده، ومناهج دعوته، وأساليب حكمته، ولذلك لا يمكن أن يعلن التحدي ويقول للناس: ائتوا بسورة من مثل ما جئتكم به من القرآن، ويقول لهم: إنكم لن تستطيعوا ذلك أبداً، وإنكم إنْ أتيتم بمثله فأكون غير صادق، لا يمكن أن يقول لهم ذلك وهو يعلم من نفسه أنه هو الذي وضع القرآن وجاء به من عنده وتلقاء نفسه، فَإِنَّ أدنى عاقل لبيب لا يُقدم على ذلك، لأنه يُراجع نفسَه فيقول: ما دام هذا الكلام الفصيح البليغ أنا الذي نَسَجْتُه وقَدَرت على ذلك ـ فهناك فصحاء وبلغاء من البشر كثيرون، فإنْ لم يقدروا على الإتيان بمثله فُرادى؛ فإنهم يقدرون على ذلك جموعاً متعاونين ومتعاضدين.

ففي هذا دليل على أن هذا القرآن لا يُمكن ولا يُحتمل أن يكون من كلام سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، وإنما هو كلام معجز نزل من لَدُنْ حكيم خبير، وهو صلّى الله عليه وسلم يَعلم أنه عاجز عن أن يأتي بمثل القرآن من تلقاء نفسه، فإنه صلّى الله عليه وسلم: سَيِّدُ ولد آدم، وهو من عالم الإنس، وقد أعلن الله تعالى عجز جميع الإنس والجن أن يأتوا بمثله قال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجتَمَعتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أَنْ يَأْتوا بمثْلِ هذا القرآنِ لا يَأْتون بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾.

وهذا مما يثبت لك يقيناً جازماً أنّ هذا القرآن كلام الله تعالى لا يحتمل أن يكون من كلام سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم ولا من غيره.

وفي هذا أيضاً دليل قاطع على أنه صلّى الله عليه وسلم لم يقل للفصحاء والبلغاء والحكماء: ائتوا بمثله إن استطعتم وإنكم لن تستطيعوا ذلك ـ لم يقل لهم ذلك إلّا هو على ثقة جازمة، وتحقُّقٍ قاطع، ويقين صادق أنهم لايستطيعون ذلك، ولا يمكن أن يكون هذا اليقين وتلك

الثقة حصلت له من نفسه، وإنما حصل ذلك له من الله تعالى الذي أوحاه إليه وأمره أن يُعلن بالتحدي، وأن يعلن عجز الخلائق عن أن يأتوا بمثله مهما حاولوا ذلك وَسَعَوْا إليه.

هذا؛ وإن تفصيلَ الكلام على إعجاز القرآن ووجوه إعجازه ليس موضعُه هنا.

ومن جملة الآيات التي يبين الله تعالى فيها دلائل وجوده ووحدانيته، وصدق نبيه رسوله الكريم سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، ويقرر فيها شواهد صدق الشهادتين بأنه: لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلم: قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَا أَيُّها النَاسُ إِنِّيْ رسولُ الله إليكم جميعاً الذي لَهُ مُلْكُ السموّاتِ والأَرْضِ لَا إلّهَ إلَّا هُوَ يُحيي ويُميت فآمِنوا بالله ورسوله النَبيِّ الأميِّ الذي يُؤمنُ بالله وكلماته واتَّبِعُوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْن ﴾.

فلقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة شواهدَ لا إلّه إلَّا الله محمد رسول الله ومشاهدَها، فَبَيَّنَ أنه سبحانه: له وحده ملك السموات والأرض، يعني: أنَّ له التصرُّفَ المطلق والتدبير الكامل للسماواتِ، أي: وما فيها، والأرضِ ومن عليها، لا مُدبِّر لهما غيرُه سبحانه، فهو الذي يُدَبِّر أمر السماوات وسير كواكبها في أفلاكها بانتظام، وأمر ملائكة السماوات، وأمر الشموس والأقمار، وأمر الليل والنهار، وأمر الجبال والبحار، وأمر الأنهار والأشجار، وأمر الصحارى والقِفَار، وكُلًّا يُمدُّه بما يحتاجه، ويسوق إلى كلّ رزقه وقُوْتَه، ما لغيره سبحانه شَرِكة في ذلك، ولا تدخُّلَ له في شيء من ذلك، بإقرار العباد كلهم واعترافهم.

فلو سألت أيَّ إنسان وقلتَ له: هل لك شركة في تدبير الكواكب السماوية، أو تدبير أمور الدواب البحرية، أو تدبير الأمور النباتية والشجرية في خِصْبِها وقَحْطها؟ لقال لك: لا تدخُّل لي في ذلك ولا علم لي بما هنالك.

إذاً نقول: حقاً الله الذي له ملك السماوات والأرض، فهو لا إلّه إلَّا هو حقاً، فشاهد آيات ذلك في السماواتِ والأرض.

ثم قال سبحانه: ﴿ يُحْيِي ويُمِيت ﴾، أي: فما خفي عليكم من أن الله تعالى له التصرف وله التدبير المطلق في السماواتِ والأرض، فليس يخفى عليكم تصرُّفه سبحانه في إحيائكم وإماتتكم، فأنتم يا معشرَ الناس تَحْيَون وتموتون، فَمَنِ الذي يُحييكم؟ ومَنِ الذي يُمِيتكُم؟ فأنتم لا تملكون ذلك باعترافكم، إذاً أليس هذا مَشهداً يُشْهِدُكم أنه: لا إلّه إلَّا الله الذي يحيي ويميت، على مَشْهَدٍ منكم؟! فكيف لا تشهدون بأنه لا إلّه إلَّا الله؟!.

ثمَّ بَيَّنَ سبحانه شواهد الشهادة بأنَّ محمداً رسول الله ـ في قوله: ﴿ فآمِنُوا بالله وَرَسُوله النَبِيِّ الأُمِيِّ الذي يُؤْمِنُ بالله وكلماته ﴾.

فهذا الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلم قد نشأ أُمياً لم يقرأ ولم يكتب باعتراف قومه الذين نشأ بينهم، ومضتْ عليه أربعون سنةً وهو على ذلك لم يأت بآيةٍ مّا، فلما كَمُل له أربعون سنة جاءه جبريل الأمين عليه السلام بالوحي الإلّهي، ونبَّأه الله تعالى وأنزل عليه القرآن؛ فأصبح يقرأ القرآن، ويأتي بآيات الله تعالى المعجزة، فَمِنْ أين له ذلك؟.

نَعَم إنَّما هو من لَدُنْ حكيمٍ خبير، فإنه الذي أقرأه وعلَّمه قال تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى ﴾، وقال تعالى: ﴿ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه وقُرآنَهُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرآن ﴾، ولذلك كان أول ما نزل عليه: ﴿ اقرأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَق ﴾ الآيات، فقرأ باسم ربه ولم يقرأ بدراسة سابقة، ولا تعلُّم أو كتابة، أو أَخْذ عن أيٍّ من الناس، إنَّما علَّمه الله تعالى وأقرأه، ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُم وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُوْن ﴾ أي: فتعقَّلوا تَعْلَموا حقاً أنَّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلم، جاء بالقرآن من عند الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُون ﴾.

فهذا سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم هو رسول الله حقاً، فإنّه ولد بمكة، وبها تربّى ونشأ، ولم يجالس النُّظَّار ولا حَمَلة الأسفار، ولم يبحث عن ديانات الملل قبله، ولم يُجالس أهل الكتاب، بل كان يَخْلو وحده يعبد ربه، ومع هذا الانفراد كان أمياً لا يكتب، ثم إنه صلّى الله عليه وسلم جاءهم بهذا القرآن المشتمل على الإثبات والتوحيد، والتسبيح والتحميد، والتمجيد، والتقديس، والدعاء والاستغفار، وبيان العبادات والطاعات، وبيان الأحكام التي تُبْنى عليها مصالح الأنام، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيَم، وكمال الآداب، وحسن العشرة والمعاملة، وجاء بالمواعظ والأمثال والقصص، وبالوعد والوعيد والترغيب، والترهيب، وتعليم المناظرة وإبراز الحجج.

وجاء بالأدلة على وحدانيته سبحانه ونَفْي الشرك، وأدلة نبوة محمد صلّى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله إلى الناس كافة، وإثبات أنه رسول الله تعالى حقاً، ونَفْي ما ادَّعَوْه من أنه كاذب، أو ساحر، أو مجنون، أو يُعلِّمه بشر، وما أشبه ذلك من الكفر والعناد، وجاء بالأدلة الدالة على إثبات أمر البعث والدار الآخرة، وأنَّ يوم القيامة لا ريب فيه، وجاء بالرد على من أنكر ذلك، وأبطل شُبَهَ المنكرين على اختلافها.

وجاء بهذا القرآن الكريم الذي يبيِّن للعاقل معرفةَ مَنْ يَجب عليه أن يتوجَّه إليه؛ وهو الله المعبود سبحانه، ومعرفةَ كيفية التوجُّه إليه سبحانه، ومعرفةَ مآل العبد ليخاف عذاب الله تعالى ويرجو رحمته؛ وهذه الأمور الثلاثة هي أَهَمُّ الأمور المطلوبة من العباد، وهي مُجْملة في قوله تعالى: ﴿ وَما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعْبُدونِ ﴾.

فالعبادة هي المطلوب الأول من خلق الإنسان، ولكنْ لا يُمكن

ذلك إلّا بمعرفة المعبود، أي: المعرفة بأسمائه وصفاته وكمالاته المطلقة، فإذا عرف ذلك ـ ومن جملة المعرفة به سبحانه معرفةُ أنه سبحانه هو آمرٌ وَنَاهٍ، ومطالِبٌ للعباد بقيامهم بحقه سبحانه ـ إذا عرف ذلك توجَّه إليه، وهذا التوجُّه لا يتأتَّى إلّا بمعرفة كيفية التوجه، وذلك بالعبادة له سبحانه والتقرُّب إليه حسب ما شرع وبيَّن من أداء الفرائض والواجبات والنوافل إلى ما وراء ذلك.

كما بيَّن نتائج الأعمال والأقوال ومآلها وعواقبها في الدنيا والآخرة ـ إنْ كانت خيراً فخير، أو غير ذلك فغير ذلك.

وجاء بالقرآن العظيم الذي يُخبر عما مضى من العوالم، وعن بدء الخلق وعن مآلها، وما وراء هذا العالم الدنيوي، وأنَّ هناك عالمَ البرزخ، ثم عالمَ القيامة، ثم عالم الحشر، وحال أهل المحشر، وأهوال الموقف، وعالم الحساب، والسؤال، والميزان، والصراط، وأخذ الكتب، وعالم القصاص، وعالم الجنة، وعالم النار، وحال أهل الجنة وحال أهل النار.

وجاء بالقرآن العظيم الذي فيه الإخبار عن العرش وعن حَمَلته، وعالم الكرسي وسعته، وعوالم السِّدْرة، وعوالم السماوات والكواكب، وعوالم الأرض وبحارها وجبالها وأشجارها، إلى ما وراء ذلك من عالم الجِنِّ، والحيوان، والحيتان، والطيور وغير ذلك.

وجاء بعلوم ومعارف لا حدَّ لها ولا استقصاءَ، ففيه الكفاية ومنتهى الغاية، فهو القرآن العظيم والذكر الحكيم والكتاب المبين الكافي عن كل ما سواه من الكتب ولا يكفي عنه شيء مما سواه.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِم إِنَّ في ذلك لَرَحْمَةً وذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمنون ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَليكَ الكتابَ تِبْيَاناً لكلِّ شيء ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِيْ هِيَ أَقْوَمُ ﴾ الآية.

فجاء بأقومِ الأدلة والحُجج والبراهين، يهدي لأقوم السُّبُل والأخلاق والخصال وأوصاف الكمال، فلا أقومَ منه ولا أكملَ منه وأحسنَ منه، ولا أهدى منه ولا أرشد منه، ولا أحكم منه ولا أصدق منه ولا أسدّ قولاً منه، ولا أعدل حُكْماً منه ولا أقسط عدلاً منه، ولا أوضح بياناً ولا أبلغ منه ولا أفصح منه، ولا أدلَّ على خير وسعادة وكرامة منه، فهو كتاب الله تعالى المعجزُ الذي إليه المنتهى وليس لمعانيه منتهى، أنزله على رسوله الكريم سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وجعله مُعجزةً مُصَدِّقَةً له، باقية إلى يوم الدين، محفوظاً من تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

فهذا مما يُشْهِدُ كلَّ عَاقل أنَّ محمداً رسول الله حقاً صلّى الله عليه وآله وسلم، لا شك في ذلك ولا ريب، فما على العاقل، إلاَّ أن يَشْهد أنَّ محمداً رسول الله، إيماناً صادقاً، ويقيناً جازماً، ونحن على ذلك من الشاهدين ـ اللهمّ فاكتبنا مع الشاهدين.

ومن الآيات الكريمة التي قرن الله تعالى فيها بَيْنَ الشهادة بأنَّه: لا إله إلاَّ الله وأدلتها وشواهدها ثم ذكر بعد ذلك شواهد وأدلة أنَّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم:

قول الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُوْلُوْنَ افْتَرَاهُ قُلْ: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادْعُوا مَنِ استَطَعْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيْبُوا لَكُمَ فاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وأَنْ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾؟.

ففي هذه الآيات يَأمر الله تعالى النبي صلّى الله عليه وسلم أن يَتحدَّى الذين يزعمون أنَّ هذا القرآن ليس كلام الله تعالى، وأن النبي صلّى الله عليه وسلم قد افتراه ـ فيطالبهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، وأن يدعوا من استطاعوا من البلغاء والفصحاء والحكماء والعلماء لمعاونتهم

ومُؤازرتهم في ذلك، لأنَّ جمهرة العقول والأفهام والآراء أقوى وأقرب لحصول المطلوب في زعمهم، فإذا دعوهم وطلبوا منهم ذلك وعجزوا، فيجب عليهم أن يعلموا علم اليقين أن الذي أنزله هو الله تعالى؛ خالق الفصحاء والبلغاء والحكماء والعلماء.

لأن هذه الجمهرة العلمية والبلاغية التي دعَوْها واعتمدوا عليها، لم ينهض بها علمها ولا بلاغتها إلى مستوى تأتي فيه بمثل سور من القرآن الكريم.

إذاً دَلَّ ذلك على أنَّ الذي أنزله ليس علمه كعلم العلماء، ولا حكمته كحكمة الحكماء، ولا كلامه مثل كلام البلغاء، بل هو أعلى من ذلك وأعزُّ وأجلُّ، فإن علمه إليه المنتهى وهو لا يتناهى، وحكمته فوق كل حكمة ولا يحاط بها، وكلامه فوق البلاغة والفصاحة ـ فهو المعجز الذي لا يؤتى بمثله.

ولذا قال سبحانه مخاطباً للمنكرين المجادلين بالباطل: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيْبُوا لَكُمْ فَاعْلَموا أَنّما أُنْزِل بِعِلْمِ الله ﴾ ـ أي: أنزله الله تعالى بعلمه الذي هو فوق علم العلماء، والذي أحاط بكل شيء، ﴿ وَلَا يُحِيْطُوْنَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاْءَ ﴾.

ثم يقرر الشهادة بألوهيته ووحدانيته تحريضاً لهم على الإقرار بهذه الشهادة بعد ظهور أدلتها وشواهدها فيقول سبحانه: ﴿ وَأَنْ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾ ـ أي: فأسلموا واستسلموا للحق ولا تَتَنكَّرُوا له، ولا تجحدوا بعدما علمتم، فإن الحق أبلج، والباطل لجلج.

ثم أتى بعد ذلك سبحانه بالشواهد الشاهدة أَنَّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، فقال بعد آيات متناسبة مع الشهادة الأولى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوْه شَاهِدٌ مِنْه ﴾ الآية، وهذا سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله وسلم، فإنّه على بينة من ربه وهو: القرآن

العظيم الذي جاء به من عند الله تعالى، فإنَّه أعظم بينة، وهو البينة القاطعة التي تُثبت قطعاً أن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم كما تقدم بيانه.

﴿ وَيَتْلُوْهُ شَاهِد مِنْه ﴾ أي: ويتلو هذا القرآن ـ المدلول عليه بكلمة ﴿بينة﴾ ـ يتلوه في تصديق هذا الرسول الكريم وحقيقة نبوته بقوله: ﴿ شاهد منه ﴾ صلّى الله عليه وسلم، وهذا الشاهد ﴿ منه ﴾ هو تلاوته صلّى الله عليه وسلم لهذا القرآن الكريم، في حين أنّه أُمِيٌّ لم يَتعلم الكتابة و لا القراءة، وليس له سابقة دراسة، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوْا مِنْ قِبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ إِذاً لارْتَابِ المُبْطِلُوْن ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكم وَلَا أَدْرَاكم به فَقَدْ لَبِثْتُ فِيْكم عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تعقلون ﴾ ـ أي: بقيت فيكم قبل أن أُنَبَّأ أربعين سنة، ولم أتل عليكم شيئاً من ذلك؛ لأنه لا علم لي بذلك، حتى إذا بلغت الأربعين فالله تعالى نبـأني وعَلَّمني وأنزل عليَّ هـذا القرآن، وأقرأنيه، وأمرني أن أقرأه عليكم، فاعقلوا تَعْلموا صدق نبوتي، وَحَقِّيَّة رسالتي قطعاً.

ويجوز أن يراد بالشاهد منه صلّى الله عليه وسلم سنته وأحاديثه الشريفة، فإنها عن وحي من الله تعالى كما قال صلّى الله عليه وسلم: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه» الحديث رواه أبو داود وغيره.

فالبينة في الآية هنا هي القرآن الكريم، والشاهد منه أحاديثه الشريفة ـ وكلاهما عن وحي من الله تعالى، لكنَّ القرآن معجز، وأما الحديث النبوي فجامع للكَلِمْ.

ويجوز أن يراد بالشاهد منه صلّى الله عليه وسلم ما أجراه الله تعالى على يده صلّى الله عليه وسلم من المعجزات، وخوارق العادات، وهذا باب واسع يدخل فيه: المعجزات العلمية، والسماوية، والأرضية،

والشجرية، والجمادية، والإخبارات الغيبية، وما جاء في تكثير الطعام والشراب؛ إلى ما وراء ذلك، فإنَّ هذا كله دليل حق، وشاهد صدق على أن سيدنا محمداً هو رسول الله تعالى حقاً، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾، فلما كان يوم بدر، أخذ صلّى الله عليه وسلم كَفَّاً من الحصى ورماه في وجوه الأعداء، وكانوا ألفاً، فأصاب جميع أنوفهم، وأعينهم، ووجوههم، ولم يخطِىء واحداً منهم، فهذا ليس من قدرة البشر العادِيَّةِ، بل هو أمر خارق للعادة؛ فهذه قدرة الله تعالى.

ومن ذلك انشقاق القمر تصديقاً لدعوته النبوة، لما اقترح عليه ذلك أهل مكة، وشاهدوا ذلك عياناً، فآمَنَ مَنْ آمن، وضَلَّ من ضَلَّ ـ عِناداً وكبراً، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاْعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ. وإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُوْلُوْا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ. وَكَذَّبُوْا ﴾ ـ أي: بالحق لما بدا لهم وعاينوه ـ ﴿ واتَّبَعُوْا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ. وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنباءِ مَا فِيْهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فما تُغْنِي النُّذُرُ. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ الآيات، وهذا صريح في تحقق انشقاق القمر ووقوعه، وإنه نبأ عظيم، وإنذار كبير، وحكمة بالغة، وحجة دامغة، فمن عاند وعارض: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُم ﴾ أي: أعرض عنهم، واترك أمرهم ليوم الحساب: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾.

ومن جملة الآيات التي يقرر الله تعالى فيها حجج لا إله إلَّا الله محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلم؛ قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكِ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ. أَمْ يَقُوْلُوْنَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوْا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُتَرَبِّصِيْنَ. أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوْن، أَمْ يَقُوْلُوْنَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيْثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾.

ففي هذه الآيات يُبَيِّن صدق نبوة سيدنا محمد صلّى الله عليه

وسلم، ويَردُّ على المخالفين القائلين: إنه شاعر أو كاهن، أو مُتَقَوِّل لهذا القرآن الكريم، ويتحدَّاهم بأن يأتوا بحديث مثل القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم أنَّه من تَقَوُّلَاته صلّى الله عليه وسلم، وحاشاه من ذلك.

ثُمَّ يُبَيِّن أدلة وجوده سبحانه ووحدانيته فيقول: ﴿ أَمْ خُلِقُوْا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُوْنَ. أَمْ خَلَقُوا السّماواتِ والأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ الآيات، فَبَيَّن لهم أن المخلوق بعد عدم لا بُدَّ له من خالق أَوْجده، وإلاّ لزم انتقال المعدوم من العدم إلى الوجود بلا ناقل، وتحرك المعدوم إلى الوجود بلا مُحرك ـ وذلك مستحيل، وليسوا هم خالقي أنفسهم ، لأنهم كانوا عدماً، إذاً لا بد أن ينتهي الأمر إلى واجب الوجود، الذي هو خالق غير مخلوق؛ وهو الله رب العالمين.

ومن الآيات الواردة في تقرير أدلة الشهادتين قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيْرٌ لَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شديد ﴾.

وفي هذا تقرير صدق نبوة سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، وأَنَّ من تَفَكَّرَ وتعقل وتبصر في أمر هذا الرسول وما جاء به؛ يَعْلَمُ قطعاً صدقه ونبوته.

ثم يُبَيِّن سبحانه أدلة وجوده وتوحيده فيقول: ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمَوات والأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ وأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيْثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُوْن ﴾.

فكل عاقل إذا تبصّر في سطور الكائنات، وتأمَّل في صفحات المخلوقات، في عوالم الأرض والسماوات، من الجزئيات والكليات، والعلويات والسفليات ـ يراها كلها شاهدةً لله تعالى بالربوبية، والوحدانية، والقدم، والبقاء:

تَأمَّل سطور الكائنات فإنَّها   من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خُطَّ فيها لو تأمَّلتَ خَطَّها   ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ

أي: كلُّ ما سوى الله تعالى فهو يَؤُوْل أمره إلى العدم والفناء.

وجه اقتران محمد رسول الله بلا إلَه إلَّا الله

إن اقتران شهادة أنّ محمداً رسول الله بلا إلَه إلَّا الله له وجوه سديدة، وأسباب عديدة، أذكر بعضاً منها:

الأول: هو أنّ لا إلَه إلَّا الله تقتضي وتستلزم أنّ محمداً رسول الله، لأن الله تعالى هو الإله الحق، المعبود بحق، فلا بُدَّ أن يُبَيِّن لعباده كيف يعبدونه، فإن الله تعالى الإلَه الحق يجب له حق العبادة على الخلق: كما جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت خلف النبي صلّى الله عليه وسلم على الدابة، فقال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله، فسكت ساعة، ثم قال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله، فسكت ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، فقلت: لبيك وسعديك يا رسول الله، قال: «أتدري ما حق الله على عباده؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «يا معاذ»، قلت لبيك يا رسول الله، قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم» ـ وقد تقدم تفصيل هذا الحديث، وتفصيل الكلام حوله.

كما أنه سبحانه هو الرب الحق، ومن شأنه أن يُرَبِّي عباده، ويُبَيِّن لهم ما فيه الرشاد وصلاح العباد والبلاد، إذ ليس من مقتضى الحكمة تركهم هَمَلاً دون أن يتعهدهم بأوامر فيها مصالحهم وسعادتهم، وإلى هذا يشير

قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَىٰ ﴾ أيْ: مُهْملاً بلا أمر ولا نهي ولا إرشاد.

كما أنه سبحانه هو الله الإلّه الملك الحق ومِنْ شأنه أن يتعهَّد عباده بما يصلحهم ويسعدهم ويعود بالخير عليهم في دنياهم وآخرتهم ـ فيشرع لهم نظاماً إلّهياً يُبيِّنُ لهم حقه عليهم، وحقوق بعضهم على بعض، والمسؤوليات والواجبات بينهم، ووجوه المعاملات والمعايشة بين بعضهم، ليعيشوا عيشة طيبة رضية، فلا بدَّ من رسالات إلّهية ربانية توضح ذلك كله ـ وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُوْنَ فَتَعَالَىٰ اللَّهُ الحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيْمِ ﴾.

وإن الله تعالى الذي هو الإلّه الحق هو أعلم بمصلحتهم، وبما يسعدهم وينفعهم لأنه هو الذي خلقهم فهو أعلم بما رَكَّبَهُ فيهم، وأودعه فيهم، وبما يصلح شأنهم، فمن حقه أن يشرع لهم ويبين لهم ما فيه صلاحهم وفسادهم.

ألا ترى مخترع المعمل أو الآلات العجيبة الكبرى ـ فإنه هو الذي يضع نظام العمل فيها، وهو الذي يبين وجوه استعمالها، ويضع في ذلك دفتر التعليمات، فمن استعملها على موجب تلك التعليمات، بقيت لديه صالحة نافعة، ومن استعملها خلاف تلك التعليمات أفسدها وعَرَّضها للعطب.

فَرَبُّ العالمين هو أعلم بما فيه صلاح العالمين، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِيْنَ ﴾ فهو الذي يخلق، وهو الذي يَشْرع لخلقه ما تصلح به أمورهم.

فجاء سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم بالشريعة الغَرَّاء، الحنيفية السمحة، الصالحة والمصلحة لكافة الأمم، في كل زمان ومكان؛ قال

تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ ﴾، وقال صلّى الله عليه وآله وسلم: «تركتكم على مِثْل البيضاء، ليلها ونهارها سواء».

الوجه الثاني: هو أنه من باب رفع ذكره صلّى الله عليه وآله وسلم، وعلوِّ فخره على جميع المخلوقات، وهذه خصيصة خَصَّ الله تعالى بها سيدنا محمداً صلّى الله عليه وسلم فقال له: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾، فلم يقل له: ورفعنا ذكره، بل جاء بقوله: ﴿ لَكَ ﴾ تخصيصاً له صلّى الله عليه وسلم، وقد جاءت الأحاديث النبوية تُبَيِّنُ وجه هذا الرفع من باب: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِم ﴾.

ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟، قلت: الله تعالى أعلم، قال: إذا ذُكِرْتُ ذَكِرْتَ معي»[1] ـ وهناك عدة أحاديث جاءت في هذا المعنى.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلّى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى قال: يا محمد أَلَمْ أَشْرَحْ لك صدرك؟، ألم أرفع لك ذكرك؟، قلت: بلى يا رَبِّ»[2].

وروى أبو نعيم في (الدلائل) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «لَمَّا فرغت من أمر السماء والأرض ـ أي: ليلة المعراج ـ قلت: يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلّا وقد كرمته: جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لي؟.

---

(١) أخرجه أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مَرْدُويَهْ، وأبو نعيم كما في (الدر المنثور) و(روح المعاني).

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في (تفسير) ابن كثير وغيره.

قال: أو ليس قد أعطيتُك أفضل من ذلك كله؟ إني لا أُذكر إلّا ذكرتَ معي، وجعلت صدور أمتك أناجيل يَقْرؤون القرآن ظاهراً ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم».

ولقد قرن الله تعالى ذكر حبيبه بذكره سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم:

فمنها قرن ذكره بذكره في الإيمان ـ قال تعالى: ﴿آمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيْهِ﴾ الآية في سورة الحديد.

وفي الطاعة ـ قال تعالى: ﴿وَأَطِيْعوا اللَّهَ والرَّسُوْلَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْن﴾.

وفي المحبة ـ قال تعالى: ﴿قُلْ: إنْ كَانَ آبَاؤُكم وَأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكم وَأَزْوَاجُكُم وَعَشِيْرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوْهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ وَجِهَادٍ فِيْ سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِيْنَ﴾.

وفي مقام الإرضاء ـ قال تعالى: ﴿واللَّهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوْه إِنْ كانُوا مُؤْمِنِيْنَ﴾.

وفي النُصرة ـ قال تعالى: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهُ ورسولَه أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

وفي التحاكم ـ قال تعالى: ﴿إِنَّما كَانَ قَوْلَ المؤمِنِيْنَ إِذَا دُعُوا إِلى اللَّهِ ورسولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُوْلُوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وفي الأدب ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية.

وفي المعصية ـ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ ورسولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيْناً﴾.

وفي المشاقة ـ قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ ورسولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾.

وفي المحادَّة ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسولَه كُبِتُوا كَما كُبِتَ الذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِم ﴾ الآية.

وفي الإيـذاء- قال تعـالى: ﴿ إِنَّ الذين يُؤْذُوْن اللَّهَ ورسـولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدنيا والآخرة ﴾ الآية.

وفي القضاء والحكم ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ ورسُوْلُهُ أَمْراً أَنْ يَكُوْنَ لَهُمُ الخِيرةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الآية، وقال تعالى في المنافقين: ﴿ وإِذَا دُعُوا إِلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيْقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُون ﴾.

وفي الوعد وصدقه ـ قال تعالى: ﴿ ولَمَّا رَأَى المُؤْمِنُون الأَحْزَابَ قَالُوْا: هَذَا ما وَعَدَنَا اللَّهُ ورسولهُ وصَدَقَ اللَّهُ ورسُوْلُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾.

وفي إسداء الفضل ـ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ورسوله وقَالوا: حَسْبُنَا الله سَيُؤْتِيْنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ إِنَّا إِلى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الآية.

وفي الهجرة ـ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَخْرُج مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرَاً إِلى اللَّهِ ورسولِهِ ثُمَّ يُدرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ على اللَّهِ وكَـانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيْماً ﴾.

وفي الشهادة: الأذان، والإقامة، والتحيات في الصلوات ـ وغير ذلك.

وفي ذلك يقول حَسان بن ثابت رضي الله عنه:

أغَرُّ عليه للنبوة خاتم من الله من نور يلوح ويُشهَدُ
وضَمَّ الإلَه اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن: أشهدُ
وشق له من اسمه ليُجلَّه فذو العرش محمود وهذا محمّدُ

صلّى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

قال الحافظ ابن كثير: وما أحسن ما قال الصَرْصَرِيُّ رحمه الله تعالى:

لا يصح الأذان في الفرض إلّا باسمه العَذْب في الفم المرضي

وقال أيضاً:

أَلَمْ تر أنّا لا يصح أذاننا ولا فرضنا إن لم نكرره فيهما

وأشار إلى: تشهد الأذان، وتشهد الصلاة.

الوجه الثالث: هو أنه صلّى الله عليه وآله وسلم حبيب الله الأكرم، فقرن سبحانه اسم رسوله محمد صلّى الله عليه وآله وسلم باسمه تعالى لأنه أَحَبُّ أحبابه إليه، وأكرم الأولين والآخرين عليه، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في ذلك:

ففي سنن الترمذي والدارمي من حديث ابن عباس: يقول صلّى الله عليه وسلم: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر» الحديث بطوله كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقد روى الحاكم حديث آدم عليه السلام: «وقد رأى مكتوباً على العرش: لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، فقال: يا رب فعرفت أنك لم تقرن باسمك إلّا أحبَّ الخلق إليك» وهذا الحديث له شواهد كما هو مبين في موضعه.

وسوف أتكلم على بقية الوجوه في كتاب آخر إن شاء الله تعالى، حتى لا يمل القارىء.

الكلام حول الأدلة على أنه لا إلّه إلاَّ الله وحده

اعلم أن ذَرّات العوالم: العلوية والسفلية، السماوية والأرضية، والنفسية كلها أدلة قاطعة على أنه: لا إلّه إلاَّ الله.

وإلى هذا يرشدنا الله تعالى بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السموّات وفي الأَرْض﴾ وبقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السمواتِ والأَرْضِ﴾.

فكل شيءٍ في السموات والأرض دليل على وجود الله تعالى ووحدانيته، سواء في ذلك الأجرام الكبرى والذرات الصغرى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُروا فِي مَلَكُوتِ السمواتِ والأَرْض وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

فالسماوات وما حوت، والأرض وما أقلّت، والذَرَّة التي لا شيء أصغر منها ـ كل ذلك دليل على وجوده تعالى ووحدانيته، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السموات وفِي الأرض﴾ أي: أدلة وجوده ووحدانيته هي: ظاهرة في السماوات والأرض، وكلها آثار صفاته، ومظاهر أسمائه، فيقر العاقل في كل شيء أنه تعالى: القدير العليم، الحكيم المدبر، الخالق البارىء، المصور إلى ما هنالك من صفاته تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَموّاتِ والأَرْضِ﴾، أي: أنها كلها آياته الدالة عليه، ترونها عياناً، فلا تنكروا، ولا تعرضوا، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَموّاتِ والأَرْضِ يَمُرُّوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُون﴾، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِيْ أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّن لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّه عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾.

ويرحم الله القائل:

فواعجباً كيف يعصى الإلّه ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل تحريكة وتسكينةٍ ... أبداً له شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فالله تعالى نَبَّهَ العقلاء وَلَفَتَ أفكارهم إلى النظر في آياته التكوينية المشهودة المرئية في العوالم الآفاقية المحيطة في أنفسهم، بحيث لا يُبقي ذلك شَكّاً ولا ريباً لعاقل، قال الله تعالى: ﴿ أَفِي الله شَكٌ فَاطِرِ السمواتِ والأَرْضِ ﴾.

كما دعاهم سبحانه إلى النظر في آياته التدوينيـة المتلوة، فإذا أعرض هذا العاقل، وتعامَىٰ عن تلك الآيات، وأبى إلّا المحـاجَّة والجدل في المناظرة.

فقد رسم القرآن الكريم للمحاجة والمجادلة مع المنكرين لله تعالى وجوده ووحدانيته طريقتين:

الطريقة الأولى:

هي أنه سبحانه يأتي بالأدلة النفسية والآفاقية والمتنوعة الدالة على وجوده ووحدانيته، ثم يُطالب الخصم المنكر للوحدانية بالدليل على تعدد الآلهة وإثبات أن معه ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً... إلخ؛ ثم يعلن سبحانه عجز المنكرين عن الإتيان بدليل برهاني يثبت التعدد:

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَماواتِ والأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أإلَه مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُوْنَ. أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً أإلَه مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. أَمَّنْ يُجِيْبُ المُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوْءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْض أإلَه مَعَ الله قَلِيْلاً مَا تَذَكَّرُون. أَمَّنْ يَهدِيْكُم فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْـنَ يَـدَيْ رَحْمَتِهِ أإلَه مَعَ الله تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ يَبْدَؤُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ أَإِلَه مَعَ الله قُلْ: هَاتُوا بُرهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين ﴾.

والمعنى أَنَّ هـذه براهين قـاطعة تَـدُلُّ على وجوده سبحـانـه

ووحدانيته، فإن أبيتم فهاتوا برهانكم على دعواكم تعطيل العالم عن صانعه، أو ادعيتم تعدد الآلهة.

ثم يُسجِّل سبحانه عجزهم عن إتيانهم بدليل صحة التعدد في الآلهة، فيقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُه عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّه لا يُفْلِح الكافرون ﴾.

والمعنى أنَّ مَنْ زعم أنَّ مع الله إلَهاً آخر فليتقدم ببرهانه على صحة دعواه، وأنَّى له ذلك فإنه لا دليل على ذلك ولا برهان.

وإيضاح ذلك أن يقال لمنكري صانع العالم وخالقه:

إنّ هذا العالم الذي تشهدونه بأعينكم لم يكن من ذي قبل ثم كان، أي: لم يكن موجوداً بل معدوماً ثم وُجد فمن الذي أوجده؟.

فهذا الإنسان الذي تراه لم يكن ثم كان، وهذا الحيوان، وهذا الشجر، وهذه الطيور، وهكذا العالم كله لم يكن ثم كان، فمن الذي أوجده بعد أن كان معدوماً؟.

فإن قيل: إن الإنسان هو خلق نفسه.

قلنا له: إنَّ الإنسان كان قبل وجوده معدوماً، فكيف يتصور لدى العقل أن يُوجد نفسه والحال هو معدوم لا وجود له...

على أنه لو كان الإنسان هو أوجد نفسه لكان يوجد نفسه كما يُحِبُّ ويرغب من غاية الجمال والكمال، وسعة المال إلى غير ذلك، في حين أنَّه ما يستطيع ذلك كله.

وإن قيل: إنَّ أباه أوجده.

قلنا: إنَّ أباه هو مثله فكيف يستطيع الأب أن يوجد ابنه في حين أنه كان عاجزاً عن إيجاد نفسه.

على أن الأب قد يرغب بالأولاد فلا يأتيه، وقد يرغب في الذكور

فتأتيه الإناث ـ إذاً لا اختيار له، ولا قدرة له، في تخليقه وإيجاده.

وإن قيل: إن الإنسان والحيوان وكل شيءٍ في الأكوان وُجِدَ بلا موجد ـ بل بطبيعته وحاله.

قلنا: إن هذا الإنسان وسائر الأكوان كانت قبل وجودها في حال العدم، وطبيعته العدم، فما الذي طرأ على طبيعة عَدمِهِ وحال عدمه حتى أعطاها طبيعة الوجود؟.

فإن العوالم الإنسانية والحيوانية والنباتية والجمادية وما وراء ذلك كلها كانت عدماً، ثم انتقلت إلى عالم الوجُود فمن الناقل لها، ومن الذي حركها من العدم إلى الوجود، ومن الذي طَوَّرها من العدم إلى طور الوجود؟ فإن هذا الانتقال من حال العدم إلى الوجود أمر كبير لا بدَّ لها من قدرة ناقل يَنْقُلها، ومحرِّك يحركها، وموجد يوجدها، فإن العدم هو عدم لا يعطي وجوداً، بل الوجود والعدم نَقِيْضان لا يجتمعان، ولا يَنتفيان، فمن باب أولى لا يتوالدان.

فالوجود لا يلد عدماً والعدم لا يلد وجوداً، إذاً لا بد من موجد آخر.

فالمصنوع لا بُدَّ له من صانع، والمتحرك لا بُدَّ له من محرك، والمنتقل لا بد له من ناقل، والمخلوق لا بد له من خالق والمفعُول لا بُدَّ له مِن فاعِلٍ وهَلُمَّ جَرّاً.

هذه أمور بديهية مشهودة، وإلى هذا كله يرشد الله تعالى العقلاء فيقول: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُون ﴾ ـ كما سيتضح لك قريباً إن شاء الله تعالى.

ويقال ثانياً لأدعياء تعدد الآلهة:

إنَّ الإلّه الواحد لا بُدَّ منه، فإنَّ هذه المصنوعات والمخلوقات تدل

على أن لها خالقاً، وهذا الخالق لا بد وأن تكون قدرته لا نهاية لها، وكذا علمه وحكمته وإرادته، وجميع صفاته كلها أزلية أبدية، قديمة باقية، ملازمة لذاته القديمة الباقية.

فنحن وأنتم ـ القائلون بتعدد الآلهة ـ متفقون على وجود الإِلّه الواحد، إذاً فما الدليل العقلي على أنَّ معه ثانياً كما تزعمون، وما وجه الحاجة إلى الشريك، في حين أنه سبحانه كامل القدرة وسائر الصفات، وما هو وجه الحصر العقلي في أن معه ثانياً وليس هو بواحد، ولا بثلاثة، وإن قلتم ثلاثة فما وجه الحصر العقلي في الثلاثة وليسوا أربعة، وإن ادعيتم أن الآلهة أربعة فَلِمَ لَمْ يكونوا خمسة، ولا أكثر ولا أقل، ما هو وجه الحصر العقلي في ذلك كله؟، فالواحد لا بد منه، لأنه لا بُدَّ للمصنوع من صانع، وللأثر من مؤثر، وللمتحرك من محرك، وللمبنى من بانٍ، وأما الزيادة على الإِلّه الواحد فلا دليل عليه ولا برهان، قال تعالى: ﴿ ومَنْ يَدْعُ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَان لَهُ ﴾.

فلا تجحد أيها العاقل، ولا تستر وجه الحق بالباطل فتكون كافراً ـ أي: ساتراً لنور الحق بعدما اتضح، ولذا قال تعالى: ﴿ ومَنْ يَدْعُ مَعَ الله إلَهاً آخر لا بُرْهَان لَهُ به فإنّما حسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكافرون ﴾، لأنهم عرفوا الحق ولم يعترفوا به، بل ستروه وجحدوه، فَحَقَّتْ كلمة العذاب على الكافرين.

الطريقة الثانية:

هي إقامة البرهان على إبطال ما يدعيه الخصم المعارض للحق:

قال الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْش عَمَّا يَصِفُون ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة البرهان القطعي الذي يُبطل القول بتعدد

الآلهة، ويثبت وجوب وجود الإلّه الحق ووحدته.

وبيان ذلك أن يقال: لو كان هناك ربّان أو أكثر: فإما أن يكون اختلافهما واجباً، أو يكون اتفاقهما واجباً، أو يكون اختلافهما واتفاقهما جائزين ـ هذه هي الوجوه التي يمكن أن يفترضها العقل لدى السبر والتقسيم:

فإن كان اختلافهما واجباً: بأن يريد أحدهما إيجاد شيءٍ، ويريد الآخر إعدامه، فإما أن يَغْلِب أحدهما الآخر، فلا شَكَّ أن الغالب هو الربُّ الإلّه الحق، والآخر ليس بإلّه حق لعجزه.

وإما أن يغلب كل واحد منهما الآخر؛ فكلاهما ليس برب حَقٍّ لعجزهما معاً عن الإيجاد والإعدام، ويلزم على ذلك أيضاً ارتفاع النقيضين وهما: الوجود والعدم، وارتفاع النقيضين مستحيل كاجتماعهما.

وذلك أن النقيضين هما المتقابلان اللذان لا يجتمعان في الشيء الواحد ولا يفارقانه، كالوجود والعدم، والظلمة والنور، والحركة والسكون، ونحو ذلك.

وأما الضدان فهما المتقابلان اللذان لا يجتمعان في شيء واحد وقد يفارقانه: كالبياض والسواد.

وإما أنْ لا يغلب كل واحد منهما الآخر، فكلاهما ليس برب حق أيضاً؛ لعجز كل واحد منهما عن أن يغلب الآخر، ويلزم من هذه الصورة اجتماع النقيضين، وهذا مستحيل أيضاً ـ هذه صور اختلافهما وكلها مستحيلة.

وأما إن كان اتفاقهما واجباً ـ أي: أمراً لازماً في كل ما يَفْعَلانه، وفي كل ما يريدانه، فيلزم منه حينئذٍ أن يكون كل واحد منهما لا يمكنه أن يفعل فعلاً ـ أَيَّ فعل كان، ولا يمكنه أن يريد شيئاً أَيَّ شيءٍ كان

حتى يُوافقه الآخر على فعل ما يفعله، أو يوافقه على إرادة ما يريده، حتى أنه لو لم يوافق أحدهما الآخر على فعل ما يفعله، أو إرادة ما يريده، لما أمكن الآخر أن يفعل شيئاً أصلاً، ولا أن يريد شيئاً أصلاً ـ وعلى هذا فيلزم حينئذٍ عجز كل واحد منهما معاً في كل ما يفعلانه أو يريدانه.

وذلك لِأنَّه حينئذٍ لا يتمكن هذا من فعل ما يفعله، أو إرادة ما يريده حتى يوافقه الآخر على فعله وإرادته، وهذا أيضاً لا يتمكن من فعل ما يفعله، أو إرادة ما يريده حتى يوافقه الآخر على فعله وإرادته، فيكون حينئذٍ هذا عاجزاً بنفسه عن فعل ما يفعله وإرادة ما يريده حتى يجعله الآخر باتفاقه معه قادراً؛ أو بالعكس ـ أي: ويكون هذا أيضاً عاجزاً بنفسه عن فعل ما يريده حتى يجعله الآخر باتفاقه معه قادراً، فلا يكون واحد منهما قادراً على فعل ما يريده إلّا بأن يجعله الآخر قادراً على ذلك، حتى لو طلب العبد حاجته من أحد الربين لم يقدر الآخر على قضاء حاجته إلّا بأن يأذن له الرب الآخر، ويعاونه ويجعله بإعانته واتفاقه معه قادراً؛ أو بالعكس.

بل نقول: إن نفس الموافقة ونفس الإرادة فعل من جملة الأفعال، وقد فرضنا أن كل واحدٍ من الربين لا يمكنه أن يفعل فعلاً حتى يوافقه الآخر؛ وعلى هذا فلا يمكن هذا أن يوافق الآخر على فعل الموافقة حتى يوافقه الآخر على فعل الموافقة وبالعكس ـ أي: لا يمكن هذا أن يوافق الآخر على فعل الموافقة حتى يوافقه الآخر على فعل الموافقة، وهذه الموافقة أيضاً لا يمكن أن يفعلها هذا حتى يوافقه الآخر على فعلها وبالعكس.

وهكذا فيلزم عليه أن لا يكون هذا رباً إلّا بشرط أن يجعله الآخر بموافقته رباً، والآخر أيضاً لا يقدر أن يجعله رباً إلّا بشرط أن يجعله الآخر رباً وهكذا يدور الأمر وهذا يسمى عند العلماء: بالدور القبلي،

وهو باطل ـ يستحيل بإجماع أهل الأرض والسماء.

وهكذا يدور الأمر فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى الآخر حتى يجعله رباً، فالاستحالة هنا من جهتين: من جهة أن هذا دور قبلي، ومن جهة أن من عجز أن يجعل نفسه رباً فكيف يقدر أن يجعل غيره رباً، فلا يصير هذا رباً، ولا يصير هذا رباً، وعلى هذا التقدير الباطل فلا يكون هناك لا رب واحد ولا ربان، وإذا لم يكن هناك لا رب ولا ربان فلا توجد السماوات ولا الأرض لفقد الرب فهو كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيْهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدتا ﴾ أي: لم توجدا.

لا يقال قد يتعاون الرجلان على حمل شيءٍ ثقيل مثلاً فكيف يكون تعاون الربين مستحيلاً؟.

لأنا نقول: هذا قياس مع الفارق فرقاناً فاحشاً بعيداً أبعد ما بين الوجود والعدم، وأين الربين من المخلوقين؟!.

فإن الرجلين المتعاونين مخلوقان ليس وجودهما من ذاتهما، ولا قدرتهما من ذاتهما، ولا إرادتهما من أنفسهما ـ بل لهما رب خالق، وهو الذي يجعلهما يتعاونان بإلْهامه إياهما، وتزيينه لهما، وبتحريكه لهما، وإقدارهما على المعاونة، فرجعت اثنتاهما إلى وحدة ربهما الذي خلقهما وجعلهما يتعاونان، فكان الرجلان المتعاونان بمنزلة اليدين المتعاونتين على حمل شيء، فكما أن صاحب اليدين هو الذي يجعلهما بحسب ظاهر الأمر يتعاونان، ومرجع اليدين له، فكذلك ـ بلا تشبيه ـ مرجع الرجلين المتعاونين لله الواحد ربهما، فهذان الربان إن لم يكن لهما رب يجعلهما أرباباً فليسا بربين كما قررناه.

وإن كان لهما رب يرجعان إليه كان هو الرب الحق وحده دونهما لأنَّ مَنْ يحتاج إلى غيره حتى يجعله رباً فهو ليس برب حق بل كذاب، فالرب يجب أن يكون فعَّالاً لما يريد بنفسه بلا معاون، قادراً على ما

يشاء بذاته بلا مشارك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيْد إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيءُ وَيُعِيْدُ. وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ، ذُو العَرْشِ المَجِيْدُ. فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّك فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ما اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ الله يَفْعل مَا يُرِيْد﴾ هذا كله إذا كان اتفاقهما واجباً لا جائزاً.

فإن كان اتفاقهما أمراً جائزاً أي: يجوز اتفاقهما واختلافهما، فلا بد حينئذٍ من مرجح يرجح أحد الجائزين على الآخر، فلا بد من حدوث أمر يقتضي اختلافهما تارة فينجران من أجله على الاختلاف، أو حدوث أمر آخر يقتضي اتفاقهما تارة أخرى فينجران من أجله على الاتفاق ـ كما يقع ذلك لملوك أهل الأرض: تارة تتفق، وتارة تختلف: لأمور يحدثها ويجددها رب العالمين، مالك الملك، يجرهم بسببها على الاتفاق أو على الاختلاف ـ فيقتتلون أو يتفقون: ﴿وَلَوْ شَاء الله ما اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعل ما يُريد﴾.

فنقول: إن الأمر الذي انجر الربان من أجله على الاختلاف لا شك هو حادث، وكذا الأمر الذي انجر الربان من أجله على الاتفاق هو حادث، فلا بد لهما من محدث، لما تقرر أن كل حادث لا بد له من محدث، فلا بُدَّ لهذين الأمرين من رب خالق يحدثهما.

فخالق هذين الأمرين للذين انجر الربان من أجلهما على الاختلاف تارة أو على الاتفاق تارة: هو الذي إن شاء ساق الربين بأسباب يحدثها ويخلقها إلى الاختلاف، أو ساقهما بأسباب إلى الاتفاق، فهذا الذي إن شاء ساقهما إلى الاختلاف تارة، أو إلى الاتفاق تارة هو الرب الحقيقي لا هذين المجبورين المقهورين تحت رب آخر ـ فرجعت الكثرة إلى وحدة هذا الرب.

وبالجملة فهذا أي: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا الله

لَفَسدتا﴾، برهان تام عقلي قطعي على توحيد الله في ربوبيته وألوهيته، خلافاً لبعض علماء الكلام من المتأخرين فإنه زعم أنه برهان إقناعي لا يكون حجة إلّا على عوام الناس لا على الخواص؛ وهو خطأ فاحش.

وفي هذه الآية قياس استثنائي ترتيبه هكذا: لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا، لكنهما لم تفسدا، فليس فيهما آلهة إلّا الله.

ومن هنا يعلم العاقل أنَّ القرآن الكريم جاء بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة، الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، والدالة على حَقِيَّة قضايا الإيمان؛ كما سيتضح جميع ذلك في كتاب: (هَدْي القرآن الكريم) إن شاء الله تعالى.

اشتمال لا إلَه إلّا الله على أصول الإيمان بالله تعالى

اعلم أن جميع أصول الإيمان بالله تعالى، هي داخلة ومجملة في كلمة لا إلَه إلّا الله، وأنَّ أهم تلك الأصول هي خمسة:

الأصل الأول: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو حَقٌّ ـ أي: واجب الوجود، قال تعالى: ﴿وَتَرى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيْج. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هو الحق وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوتَىٰ وأنّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الحَقُّ فَمَاذَا بعد الحَقِّ إِلَّا الضَلال﴾.

وفي هذا الاعتقاد براءة من التعطيل والإلحاد الذي هو إنكار خالق الخليقة، وصانع العالم، وطابع الطبيعة.

الأصل الثاني: الاعتقاد بأن الله تعالى هو: واحد لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُم إِلَه وَاحِدٌ لا إِلَه إِلَّا هُوَ الرَحمن الرحيم﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ: هُوَ الله أحد﴾.

وفي ذلك براءة من الشرك بأنواعه.

قال تعالى: ﴿ وقُلِ الحَمْدَ للَّهِ الذِيْ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيْكٌ في المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ من الذُّلِّ وكبِّره تَكْبِيراً ﴾.

الأصل الثالث: الاعتقاد بأنه سبحانه متصف بالكمالات المطلقة، ومَنَزَّهٌ عن النقائص والآفات.

الأصل الرابع: الاعتقاد بأنه لا مشابهة بينه وبين المخلوقات، قال تعالى: ﴿ لَيْس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْع البصير ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولم يكُنْ له كُفُواً أحد ﴾ ـ أي: لا شبيه له ولا عديل، ولا مثيل، ولا بديل، وليس بجَوهر ولا عرض سبحانه وتعالى.

الأصل الخامس: الاعتقاد بأن جميع ما سواه سبحانه إنما أوجده الله تعالى بقدرته واختياره ومشيئته وإرادته، فليست القضية أن الخالق والمخلوقات من باب العلة الموجبة بالذات، ولا بالمعلول الموجود بموجب العِلَّة، قال تعالى: ﴿ إِنَّما قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾.

والاعتقاد بأنه سبحانه هو وحده المؤثر الفعّال، والمدبِّر للأمور، والمتصرف فيها، فله التدبير المطلق، وما لغيره شركة معه في التدبير والتصرف والتأثير: لا الملائكة، ولا الكواكب، وإنما هي مسخرات بأمره، فهو الفعّال لما يريد، والكل له عبيد.

قال تعالى: ﴿ ومَنْ يُدَبِّرُ الأَمْر فسيقولون: الله ﴾ وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ يُدَبِّر الأَمْرَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يُدَبِّر الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْض ﴾.

وأما قوله: ﴿ فالمُدَبِّرات أَمْراً ﴾ فَهُم الملائكة عليهم السلام الموكلون من جناب الله تعالى في تدبير الأمور بإذن الله تعالى وأمره لهم بذلك على الوجه الذي هو دَبَّرهُ سبحانه وأراده.

وإليك الدليل المفصل على كل أصل من هذه الأصول الخمسة:

أما الدليل على أنه حق واجب الوجود: فذلك ما بَيّنه الله تعالى في قوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُون ﴾.

فهذا الإنسان وهذه العوالم لم تكن قبل ثم كانت فمن الذي كوَّنَها؟.

فإن قلت: ليس ثمة خالق أصلاً.

قلنا: هي كانت عدماً، والعدم هو عدم ـ لا يعطي الوجود، فمن أين لها الوجود؟.

فإن قلت: هي خلقت نفسها.

قلنا: إنها لم تكن قبل خلقها شيئاً موجوداً؛ بل كانت عدماً، فكيف وهي معدومة تعطي نفسها الوجود؟ وإلى هذا يشير قوله تعالى في إثبات وجود واجب الوجود الحق: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْر شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾، يعني: أنهم شيء موجود، فلا بد أن الذي أوجدهم لـه وجود، ولا يجوز أن يكونوا هم الخالقين، لأنهم لا وجود لهم، بل كانوا عدماً، ولا جائز أنَّ مخلوقاً آخر خلقهم، فإن الذي خلقهم تعدَّت قدرته إلى غيره فأوجده، وهذا يلزم أنه: غير محتاج إلى خالق يخلقه، فإن الذي يخلق غيره هو غير محتاج إلى من يخلقه.

ثم إنَّ هذا الغير إنْ كان أباه فإنه لا علم عنده بما يولد له، بل لا يعلم سيولد له ولد أَمْ لا، كما أنه لا قدرة له على خلق ولده، بدليل أن هناك كثيراً ممن يريد الولد وليس هو بوالد، إذاً لا بد أن ينتهي الأمر إلى من هو واجب الوجود، الذي هو خالق غير مخلوق، ألا وهو: الله الحق المبين.

وهكذا يحتج سبحانه على وجوب وجوده بخالقيته، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ على الإنْسَانِ حِيْنٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شيْئاً مَذْكُوراً ﴾ أي: قد

أتى حين من الدهر ما كان شيئاً يذكر ثم كان، فليفكر: مَن حَرَّكه من العدم إلى الوجود، قال تعالى: ﴿ إنَا خَلَقْنا الإنسان من نطفة أمشاج نَبْتَلِيْهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيْعاً بَصِيراً ﴾.

وهكذا يذكر الله تعالى آيات التخليق، فيقول سبحانه: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات والأرض... ﴾ الآية.

فعالم الطبيعة، وعالم الفليقة، وعالم الخليقة، كلها مخلوقة لله تعالى، فهو طابع الطبيعة، وفالق الفليقة، وخالق الخليقة ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبّكُم خَالِقُ كُلِّ شَيْء لَا إِلَه إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُون ﴾.

وأما الدليل على أنه سبحانه واحد: فإن الواحد لا بُدَّ منه في إيجاد الموجودات كما تقدم، فمن ادعى أنه معه إلَهاً ثانياً، أو ثالثاً، أو رابعاً، فليأت ببرهان على ذلك، وأنه لا بد من ثانٍ أو ثالثٍ - وليس هناك برهان، إذ لا حاجة إلى وجود الثاني والثالث، لأن الواحد الواجب وهو الله تعالى: علمه لا يتناهى، وقدرته لا تتناهى، فما الحاجة إلى وجود الثاني أو الثالث، ثم ما هو وجه الحصر العقلي بأن معه ثانياً أو ثالثاً وليس معه ثلاثمائة، نعم لا دليل على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْد ربه... ﴾ الآية، وهناك الدليل الإيجابي على وحدانيته تعالى تقدم مفصلاً.

وأما الدليل على أنه سبحانه متصف بالكمال المطلق ومنزه عن النقائص: فقد قال سبحانه: ﴿ وِلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسنى فادْعُوهُ بِها ﴾، وقال: ﴿ الله لَا إِلَه إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحسنى ﴾، والحسنى تأنيث: الأحسن - أفعل تفضيل - والمراد أنها أحسن الأسماء وأجَلُّها لدلالتها على أشرف المعاني وأحسنها.

وأما الدليل على أنه لا يشبه المخلوقات: فهو أن المخلوق حادث بعد عدم، وأما الخالق فهو قديم لا أوَّل لوجوده، فكيف يتصور في

العقل أن تقع المشابهة بين قديم وحادث، فإن ذلك مستحيل؛ كاستحالة المشابهة بين المتناقضين، بل هو أشد استحالة، فلو وقعت المشابهة لأدّى ذلك إلى حدوث القديم في وجه المشابهة، أو قدم الحادث وذلك مستحيل، فإن القديم قديم، والحادث حادث، فهما نقيضان لا يجتمعان في شيء موجود، ولا يرتفعان عنه، فالموجود إما قديم وإما حادث، وليس هناك قديم لا أول له إلّا الله تعالى، لما ثبت في الأدلة القطعية.

وأما الدليل على أنه سبحانه فَعَّال بإرادته ومشيئته كما قال سبحانه: ﴿ فَعَّالٌ لما يريد ﴾.

فإنه لَوْ لَمْ يكن فَعَّالاً وخَلَّاقاً بإرادته لكان مُجْبَراً أو مكرهاً على ذلك، وحينئذٍ يقال: مَنِ المكرِه والمجبر له على أفعاله؟، أهو إلّه آخر أقدر منه وأقوى؟ أم هناك قوةٌ فوق قوته؟، وتلك القوة ما هي؟ ومَنْ أوجدها؟ ـ وقد تقدم الدليل على بطلان تعدد الآلهة والأرباب.

وأما الدليل على أنه سبحانه المدّبِّر المطلق، والمتصرِّف في العالم وحده؛ فقد قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْر ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْر كُلُّه ﴾، وقال: ﴿ وَمَنْ يدبِّرُ الأمر ﴾، أي: لا أحد غيره.

ولا يتصور في العقل أن يشاركه في تدبيره المطلق غيره، لأن ذلك الشريك إما هو إلّه مثله ـ وذا مستحيل كما تقدم في بطلان التعدد، وإما هو مخلوق فهذا المخلوق هو محتاج إلى أن يُدَبِّر الله أموره، لأن المخلوق لا يستطيع أن يدبِّر أموره تدبيراً مطلقاً، لأنَّه لا يعلم الغيب الذي مضى عليه، ولا الغيب الذي يأتي عليه حتى يدبِّر لتلك الأمور المغيبة عنه ما تتطلبه وتستلزمه، وإنما يعلم أن يتصرف ويدبّر بعض أموره التي دَبَّرها الله تعالى له، وأعدَّها وأبرزها له، وعرفه بما تتطلبه

تلك الأمور وتستلزمه: من أسباب معاشية وحيوية، ودنيوية وأخروية، أو جسمية، أو معنوية... إلخ.

فالله تعالى نصب لعباده أسباباً، وأمر عباده بتعاطيها، ولكنه هو المؤثِّر الفعَّال بالأسباب، وهو الخالق لتأثيرها، فالأسباب حُجَّابٌ بين يَدَيْ رَبِّ الأرباب، إن شاء أعملها وإن شاء أهملها وعَطَّلها، فلا تأثير لها إلّا بخلقه وقدرته سبحانه.

فهو سبحانه الذي يُحيي بالهواء، ويُقِيْتُ بالطعام والغِذاء، ويروي بالماء، وهو الذي يشفي من أراد شفاءه بالدواء.

وهو الذي يُحرق بالنار، ويجعل الصلابة بالحديد، ولو أراد لسلب من النار إحراقها فجعلها برداً وسلاماً ـ كما جعلها على الخليل عليه السلام.

وكما يجعل نار جهنم على المؤمنين حين يمرون على الصراط ويرونها ـ يجعلها عليهم برداً وسلاماً، كما جاء في الحديث عنه صلّى الله عليه وسلم.

ولو شاء الله لألاَن الحديد وجعله كالعجين وسلبه الصَّلاَبة والقوة، قال تعالى لداود عليه السلام: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الحدِيد ﴾ فهو بين يدي داود كالعجين اللَّيِّن.

ولو شاء الله لم يَرْوِ الشارب بالماء، ولم يُغَذِّ الآكل بالطعام، فهو الفَعَّال المؤثِّر وحده سبحانه ولا شريك له في ذلك، لأن التأثير الذاتي، والفعَّالية المطلقة؛ ذلك يتطلب علماً محيطاً، وقدرة لا تتناهى ـ وهذا لله وحده سبحانه وتعالى.

فالله تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً، ربط الأسباب بالمسَبَّبات، وبقدرته على كل شيءٍ جعل التأثير في المؤثرات، فالتسبيب بعلمه، والتأثير بقدرته، وأمر عباده أن يتعرفوا إلى خصائص

تلك الأسباب، وما يترتب عليها من مُسَبَّبات وتأثيرات، وأمرهم أن يتعاطوها على الوجه الذي شرعه الله تعالى لهم، لتعود عليهم بالمنافع والفوائد والمصالح في الدنيا والآخرة، ونهى عباده أن يَعْتَدوا حدود شريعة الله تعالى، لئلا يقعوا في المهالك والمفاسد والمضار، فإن الشارع وهو الله رب العالمين، العليم الحكيم، الخبير البصير بعباده، الرؤوف الرحيم بهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بالنَّاسِ لَرَؤُوْفٌ رَحِيْم ﴾.

فحدود أوامره سبحانه، نهى عباده أن يعتدوها بالغُلوِّ والإفراط قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُوْدُ الله فَلَا تَعْتَدُوْها ﴾.

ومناهيه،نهى سبحانه عباده أن يقربوها فيقعوا في المهلكة والتفريط قال تعالى: ﴿ تِلْك حُدُوْدُ الله فَلَا تَقْرَبُوها ﴾.

فالشريعة هي الوسط الجامع لكمال الطرفين ـ لا إفراط فيها ولا تفريط.

الشهادة بأن سيدنا محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم تتطلب أموراً إيمانية متعددة

إن الشهادة بأن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم تتطلب قضايا إيمانية يجب الاعتقاد بها قطعاً ـ وهي كثيرة نذكر منها خمسة مشهورة يجب معرفتها واعتقادها قطعاً:

الأولى: الاعتقاد الجازم بأن رسالته صلّى الله عليه وسلم هي عامَّة لجميع الثقلين: الإنس والجن على مختلف أنواع الأمم: العرب والعجم ـ قال تعالى: ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إلَّا كافَّة لِلنَّاس بَشِيْراً وَنَذيراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُل: يَا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيْعاً ﴾.

الثانية: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى ختم به النبوات والرسالات الإلّهية؛ فلا نبيَّ ولا رسول بعده ـ قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَبِيِّيْنَ ﴾.

الثالثة: الاعتقاد الجازم بأن شريعته هي ناسخة لجميع الشرائع قبلها، وليست هي بمنسوخة أبداً، ولذا كان لا بُدَّ من بقاء سند هذه الشريعة ومصدرها وهو: كتاب الله تعالى وسنّة نبيه صلّى الله عليه وسلم إلى يوم الدين ـ وقد تكفَّل الله تعالى بحفظ ذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ ـ والمراد بالذكر هنا: كتاب الله تعالى، وإنّ حفظ الكتاب يستلزم حفظ السنَّة لأنها بيان له قال تعالى: ﴿وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّل إِلَيْهِم ﴾ ـ ومن هنا يعلم العاقل ويرى أن الكتاب والسنة محفوظان باقيان مع تمادي العصور وتوالي الأزمان.

الرابعة: الاعتقاد الجازم بأنه صلّى الله عليه وآله وسلم هو أفضل الأنبياء والمرسلين وإمامهم وخطيبهم وصاحب شفاعتهم.

الخامسة: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى قد خَصَّه بخصائص لم ينلها غيره من الأنبياء والمرسلين وهي كثيرة ومنها: مقام الإسراء والمعراج بالجسم والروح معاً صلّى الله عليه وسلم، والمقام المحمود ـ وهو الشفاعة العظمى.

ومنها: أنَّ لواء الحمد بيده وجميع الأنبياء تحت لوائه صلّى الله عليه وسلم.

ومنها: أنه سيد ولد آدم أجمعين، وأنه أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين.

وله صلّى الله عليه وسلم مقام الأوليات:

فهو صلّى الله عليه وسلم أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأول من يجوز على الصراط بأمته، وأول شافع وأول مشفع، وأول من يفتح باب الجنة ويدخلها صلّى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً أبد الآبدين، وعلينا معهم أجمعين.

وسوف نأتي على أدلة ذلك إن شاء الله تعالى.

* عموم رسالته صلّى الله عليه وآله وسلم

أما الدليل على عموم رسالته صلّى الله عليه وآله وسلم فقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافَّة لِلناس بَشِيراً ونذيراً ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ قُل: يَا أَيُّها الناسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم جَمِيعاً ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِين ﴾.

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُوْن للعَالَمين نَذِيْراً ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وأُوْحِيَ إِلَيَّ هذا القُرْآن لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ ومَنْ بَلَغَ ﴾ الآية.

فهذه الآيات الكريمة هي صريحة في عموم رسالته صلّى الله عليه وسلم؛ وأما الرسل قبله صلوات الله تعالى عليه وعليهم فلقد كانت خاصة بأقوامهم:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَومه ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَإِلى عَادٍ أَخَاهُمْ هوداً ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَإِلى ثَمُوْدَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ واتْلُ عليهم نَبَأَ إِبراهيم إذْ قالَ لِأَبيهِ وقومه: ما تَعْبدون ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسَى بآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وإِذْ قَالَ مُوسى لقومه: يا قوم لِمَ تُؤْذُوْنَنِيْ وَقَدْ تعلمون أنِّي رسولُ اللَّهِ إليكم ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وإِذْ قال عيسى ابن مريم: يا بني إِسْرائيل إِنِّي رَسول الله إليكم مصدقاً لما بين يَديَّ مِنَ التوراة ومُبشراً برسول يأتي مِنْ بعدي اسمه أحمد ﴾ صلّى الله عليه وآله وسلم.

وقد بين النبي صلّى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم﴾. بَيَّن عموم رسالته وخصوص رسالات من قبله فقال كما جاء في الصحيحين والسنن: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود»[١]، وفي رواية: «وبعثت إلى الناس عامة، وأحلت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ومسجداً؛ فأيُّما رجل أدركته الصلاة صَلَّى حيث كان، ونصرت بالرعب على العدوِّ بين يَدَيْ مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة».

وفي رواية لمسلم: أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «فُضِّلْت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافَّة، وخُتم بي النَبِيُّونَ».

ويدخل في عموم الخلق عالم الجن.

قال الحافظ في (الفتح): وثبت التصريح بذلك في حديث: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الإنس والجن» فيما أخرجه البزار. إهـ.

قلت: وقد ذكره الحافظ السيوطي في (الخصائص) وهذا لفظه: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «أعطيت خمساً لم يُعطها أحد قبلي من الأنبياء: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ـ ولم يكن أحد من الأنبياء يصلي حتى يبلغ

---

(١) قال ابن الأثير في (جامع الأصول): أراد بالأسود والأحمر جميع العالم، فالأسود معروف؛ وهم الحبوش والزنوج وغيرهم، والأحمر هو الأبيض، والعرب تسمى الأبيض أحمر. اهـ.

محرابه، ونصرت بالرعب مسيرة شهر يكون بين يدي إلى المشركين فيقذف الله الرعب في قلوبهم، وكان النبي يبعث إلى خاصة قومه وبعثت إلى الجن والإنس، وكانت الأنبياء يعزلون الخمس فتجيء النار فتأكله، وأمرت أن أقسمه بين فقراء أمتي، ولم يبق نبيٌّ إلاّ أعطي سؤله، وأخَّرت أنا دعوتي شفاعةً لأمتي»[1].

ونقل في (الفتح) عن ابن عبد البَرِّ: أنه لا خلاف في أنه صلّى الله عليه وآله وسلم بُعث إلى الإنس والجن.

قلت: وقد ثبت بلوغ دعوته صلّى الله عليه وآله وسلم إلى الجن قطعاً، وكان ذلك عن طريق توافدهم عليه واستماعهم إليه صلّى الله عليه وسلم، وعن طريق ذهابه صلّى الله عليه وسلم إليهم وقراءته عليهم القرآن، وأسئلتهم له، وأجوبته صلّى الله عليه وسلم لهم كما بينتُ ذلك مفصلاً مع الأدلة في كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام، والبحث في عالم الجن) فارجع إليه.

* هو خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم

وأما الدليل على أنه خاتم النبيين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين:

فقد قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُوْلَ اللَّهِ وَخَاتَم النَبِيِّيْنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُل شَيء عليماً ﴾.

والتذييل بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الله بكل شيء عليماً ﴾ فيه تنبيهات إلٓهية هامَّة يفهمها من تدبر آيات الله تعالى، وتفكر فيها أذكر طائفة منها:

---

(١) وعزاه الحافظ السيوطي إلى: البخاري في (تاريخه)، والبزار والبيهقي وأبي نعيم.

أولاً: التنبيه إلى أنَّ مقام رسالته العامة وختم نبوته صلى الله عليه وسلم لم يكن ذلك صدفة، ولا طفرة، ولا خَطْأة، ولا خطفة، وإنما كان ذلك عن حكمة وعلم إلّهي قديم لا أوَّل له، فهو سبحانه بعلمه الذي لا أول له ـ هو يعلم أنه لا يليق لعموم الرسالة، وختم النبوة، إلّا هذا السيد الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وإن علم الله تعالى بالأشياء هو العلم الحقيق الصحيح الذي لا يخطىء، ولا يتبدل، ولا يتغير، وإذا كان علم المخلوق المكتسب الجزئي المبني على أدلة قطعية ـ لا يقبل التبدل: كعلم الإنسان في الليل بأنه ليل، وفي النهار بأنه نهار، فما بالك بعلم الله الذاتي المحيط بكل شيء، كيف يقبل التبدل والتغير تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثانياً: التنبيه إلى تمام أهليته وكمال استعداده صلى الله عليه وآله وسلم الذي أعدَّه الله تعالى وأمَدَّهُ به، فإنَّ المقام العظيم ينبغي بمقتضى الحكمة أن يقع في موقعه اللائق به قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتهُمْ آيَةٌ قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوْتِيَ رُسُلُ اللهِ اللَّهُ أَعْلم حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالته ﴾ الآية.

فلما تطلعوا إلى ما أعطى تعالى رسله، من إنزال الملائكة عليهم بالوحي والكتب الإلّهية والشرائع والأوامر والمناهي، ونظروا إلى أنفسهم وإلى الرسل؛ فزعموا أنه لا فرق بينهم وبين الرسل، إذ كلهم من بني الإنسان، وكلهم بشر فقالوا: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مثل ما أوتي رسل الله ﴾، فلما تطلعوا إلى أمر ليسوا أهلاً له ولا قبل لهم به، جاء الجواب من رب الأرباب سبحانه: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

يعني: أن هذا الأمر ليس كما يزعمون، وإنما يضع الله تعالى فضله في مواقعه، وهو أعلم بالموضع الذي يليق أن يضع فيه الرسالة، وكفى به عليماً سبحانه.

فليست القضية عبثاً ولا طفرة ولا رمية حجر قد رماها بشر لا يدري أين تقع ـ تعالى عن ذلك؛ بل هو كما قال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَم حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾.

وكما قال في حبيبه صلى الله عليه وسلم وختم النبوات والرسالات به: ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَبِيِّينَ وكان الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾.

وكما قال في خليله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمين ﴾.

وقال في سليمان: ﴿ وَلِسُلَيْمان الرِّيح عَاصِفَةً تَجري بِأَمْرِهِ إِلى الأَرْضِ التي بَارَكْنا فِيْها وكُنَّا بِكُلِّ شَيء عَالِمين ﴾.

ثالثاً: التنبيه إلى عظمة فضل الله تعالى وكمال حكمته؛ وذلك أنه يضع المراتب العلوية، والمواهب الإلَهية مواضعها اللائقة بها، فإن وضع المراتب في غير موضعها يكون عبثاً ولعباً مناقضاً للحكمة قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وما بينهما لاَعَبِيْنَ ﴾، كما أن حرمان المستحق المستعد ـ هو ظلم، وهو سبحانه منزه عن الظلم، قال تعالى: ﴿ وَمَا الله يُرِيْد ظُلماً لِلْعِبَادِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَخَافُون أَنْ يَحِيْفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُه بَلْ أُولَئِك هُمُ الظَّالِمُون ﴾.

رابعاً: التنبيه إلى عُلوّ شان هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ورفعة مقامه على سائر إخوانه: الأنبياء والمرسلين، حيث خصه الله تعالى بمنصب عموم الرسالة وختم النبوات، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يتحدث بهذه النعمة شكراً، ويعلن بها ذكراً لفضل الله تعالى الذي خصه بالخصائص العظمى والمنن الكبرى.

فقد روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل

رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة من زاويةٍ من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هَلَّا وُضعت هذه اللبنة - قال صلى الله عليه وآله وسلم: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنىٰ داراً فأتمها وأكملها إلّا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: فأنا موضع اللبنة، جئتُ فختمتُ الأنبياء» هذا لفظ مسلم.

خامساً: التنبيه إلى وجوب توقيره وتعظيمه وكمال الأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم وأنه ليس كغيره من الأمة؛ بل وليس كغيره من الأنبياء والمرسلين، بل هو صلى الله عليه وسلم إمامهم وقائدهم وخطيبهم وخاتمهم وصاحب شفاعتهم، وأكرمهم على الله تعالى، وأفضلهم عند الله تعالى، كلهم تحت لواء حمده وراية مجده.

فيا أمة محمد صلى الله عليه وسلم اعرفوا لهذا الحبيب الأكرم فضله صلى الله عليه وسلم.

فإنه صلى الله عليه وسلم إمام أنبياء الله تعالى، وسيد خلق الله تعالى، وأكرم الأولين والآخرين على الله تعالى، وأعظم خلق الله تعالى، فإنَّ كل رسول له مقامه في الخلافة عن الله تعالى.

ولقد قال الله تعالى في بيان شرف خلافة آدم عليه السلام: ﴿ وَإِذ قَالَ رَبُّك لِلْمَلَائِكة إِنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيْفَةً ﴾ الآية.

وقال سبحانه في شرف خلافة الخليل عليه السلام: ﴿ قَال: إِنِّي جَاعِلُك لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ الآية.

وقال سبحانه في شرف خلافة داود عليه السلام: ﴿ يَا داودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً في الأرض ﴾ الآية.

وقال تعالى في بيان شرف خلافة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وفضلها وعلو رتبتها على جميع مراتب الخلفاء: ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُوْنَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيْهم ﴾ الآية، فتدبر وتبصر أيها القارىء تفهم.

وأما الدليل على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين.

فإن الأدلة على ذلك هي كثيرة وشهيرة ليس موضع تفصيلها هنا، ولكن نذكر جملةً موجزةً.

وذلك أن الله تعالى جعله إمام الأنبياء والمرسلين، وخطيبهم، وقائدهم، وصاحب شفاعتهم، وأعطاه لواء الحمد الذي يدخل تحته: آدم فمن دونه، وأعطاه مقام السيادة على جميع بني آدم بما فيهم الأنبياء والمرسلون.

فهو صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء: أمَّهم حين كان في الدنيا ليلة الإسراء في بيت المقدس، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مَسْرايَ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ـ أي: لم أحفظها لاشتغالي عنها بما هو أهَمُّ ـ فكُربت كربة ما كربت مثله قطُّ، قال صلى الله عليه وسلم: فرفعه الله لي أنظر إليه ـ أي: رفع له بيت المقدس ـ ما يسألونني عن شيءٍ إلّا أنبأتهم به.

وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء:

فإذا موسى قائم يصلي؛ فإذا رجل ـ أي: هو رجل ـ ضرب جَعْدٌ كأنه من رجال شنوءة.

وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي؛ أقرب الناس به

شبهاً عروة بن مسعود الثقفي.

وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي؛ أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه صلى الله عليه وسلم.

فحانت الصلاة فأَمَمْتُهم، فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلِّم عليه، فالتفت إليه فبدأني بالسلام».

وفي رواية ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم - في حديثه عن الإسراء - قال: «فلم ألبث إلّا يسيراً حتى اجتمع ناس كثيرٌ، ثم أَذَّن مؤذن، فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفاً ننتظر من يَؤُمُّنا، فأخذ بيدي جبريل فَقَدَّمني فصلَّيْتُ بهم»[١].

وهو صلى الله عليه وسلم إمام المرسلين في الآخرة أيضاً:

عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»[٢].

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نَبِيٍّ يومئذٍ آدم فمن سواه إلّا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر».

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من

---

(١) انظر (فتح الباري).

(٢) عزاه في (الفتح) إلى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأوَّل مشفع».

فهو سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم؛ كما أنه أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين:

روى الترمذي والدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جلس ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتذاكرون ـ وهم ينتظرونه، قال: فخرج صلى الله عليه وسلم حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم ـ فقال بعضهم: عجباً أن الله تبارك وتعالى اتخذ من خلقه خليلاً ـ اتخذ إبراهيم خليلاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى ـ كلمه الله تكليماً، وقال آخر: وعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم آصطفاه الله.

فَسَلَّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم وقال: «قد سمعت كلامكم وعجبكم:

إن إبراهيم خليل الله ـ وهو كذلك، وإن موسى نجيُّ الله ـ وهو كذلك، وإن عيسى روح الله وكلمته ـ وهو كذلك، وآدم آصطفاه الله ـ وهو كذلك.

أَلَا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول مَنْ يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»، وعند الدارمي: «وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر»).

وروى الدارمي في (سننه) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (إن الله تعالى فَضَّل محمداً على الأنبياء وعلى أهل السماء).

قالوا: يا بن عباس بِمَ فَضَّلَه على أهل السماء ـ أي الملائكة عليهم السلام ـ؟!.

قال: (إن الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿ وَمَنْ يَقُل مِنْهُمْ إنِّي إلَه مِنْ دُوْنِه فَذَلك نَجْزِيْه جَهَنَّم كَذلِكَ نَجْزِي الظالمين ﴾، وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ إنَّا فَتَحْنا لك فَتْحاً مُبِيْناً. لِيَغْفِرَ لك الله ما تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِك وما تأخر ﴾).

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟.

قال: (قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أرسلنا مِنْ رسول إلَّا بلسان قومه ليبين لهم﴾ الآية ـ أي: رسالته خاصة بقومه ـ، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وما أرسلناك إلّا كافَّةً للناس ﴾، فأرسله إلى الجن والإنس ﴾). اهـ[1].

وروى الدارمي عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر».

وأما الأدلة على أن الله تعالى قد خصه بخصائص لم يعطها غيره من الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم:

فاعلم أنه قد جاء في كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ما يثبت قطعاً أن الله تعالى قد خَصَّ رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بخصائص لم يعطها غيره من الأنبياء والرسل، وهي كثيرة وشهيرة، وإنني أذكر طرفاً منها: مقام الإسراء ومقام المعراج الجسماني والروحاني، والمقام المحمود، ومقام الخلافة العظمى، ومقام الوسيلة، ومقامه عن يمين العرش، ومقام الأوليات.

---

(١) هذا لفظ الدارمي، وعزاه الحافظ السيوطي في (الخصائص) إلى أبي يعلى والطبراني والبيهقي.

مقام الإسراء والمعراج

قال الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الذي أَسْرىٰ بِعَبْده لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنا إنَّه هُوَ السميع البصير ﴾.

والكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الأول: هذه الآية الكريمة تثبت الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بنص قوله تعالى: ﴿ أَسْرى بعبده ﴾، وتثبت المعراج إلى السموات السبع؛ إلى سدرة المنتهى، وما هنالك بإشارة قوله تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُ مِن آياتنا ﴾، فإن هذه الآيات جاء ذكرها في مطلع سورة النجم التي جاء فيها النص على المعراج الجسماني قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهى عندها جَنَّةُ المأوى ﴾، فهذه الآيات صريحة في أنه صلى الله عليه وسلم قد عرج به إلى العالم العلوي، ولما انتهى إلى سدرة المنتهى هناك رأى جبريل عليه السلام بالحقيقة الجبريلية، وهذه سدرة المنتهى هي فوق السماوات السبع، ليست هي في الأرض ولا في السموات، بل فوقها بدليل قوله تعالى: ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾، ولا شك أن جنة المأوى هي فوق السماوات، وسقفها عرش الرحمن كما جاء في صحاح الأحاديث النبوية.

ثم قال سبحانه: ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ ـ قال أبو هريرة رضي الله عنه: (يغشاها نور الخلّاق)؛ أي: وذلك حين تَجَلَّى رب العزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند السدرة، وهناك أعطاه الله تعالى قُوّةً في بصره وثباتاً في فؤآده: ﴿ مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طغى ﴾ بل ثبت فلم يحر بصره، ولم يجاوز المنظور إليه.

وذلك أن مَنْ عظم النور أمام عينيه فهو بين أمرين: إمَّا أن يحار بصره ضعفاً وتعباً، أو يلتفت يَمْنة ويسرة ليريح بصره من الكلل، إلّا إذا

أعطي قوة الثبات أمام ذلك النور الباهر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّه الكبرى ﴾ أي: تلك الآيات الإلٓهية العلوية السماوية، والسدرية، والجنانية، والعوالم الملكية والأرواح العالية ـ كما سنوضحه إن شاء الله تعالى ـ فهذه الآيات هي التي جاء ذكرها في سورة الإسراء بقوله: ﴿ لِنُرِيَه مِنْ آياتنا ﴾.

الثاني: في هذه الآية الكريمة وجوه من الأدلة على أن الإسراء هو بالجسم والروح وكذلك المعراج، فإنَّ قوله تعالى: ﴿ أَسْرى بِعَبْدِه ﴾ أي: بجسمه وروحه، لا يحتمل غير ذلك، ألا ترى إلى قول الله تعالى لموسى: ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾، هل يخطر على بال العاقل أن المراد أن يَسْرِيَ موسى بروح أتباعه، أو أن يخيل إليهم، أو أن يريهم مناماً؟، بل إن كل عاقل يَعلم أَنَّ المراد أن يَسْرِيَ بهم أجساداً وأرواحاً، على أن قوله تعالى: ﴿ بِعَبده ﴾ تدل ثانياً على أن الإسراء بالجسم، إذ أن اسم العبد لا يطلق على الروح بدون جسم فتلك يقال لها: روح، بل اسم العبد يطلق عليه جسماً وروحاً.

كما أنَّ قوله تعالى: ﴿ مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ يَدُلّ على أن الإسراء بالجسم؛ وذلك لأن تحديد المسافات الحسية الأرضية هو من شأن الأجسام، أما الأرواح فإنها لا تقيدها الأماكن المحسوسة، ولا تحدها المسافات، لأن الأرواح من العالم اللطيف الأمري، وأما الأجسام فهي من العالم الكثيف الأرضي.

ولما كانت قضية الإسراء بالجسم، وما فيها من قطع المسافات الشاسعة في مدة قصيرة ـ وذلك من خوارق العادات، وعجائب الأمور، لما كان الأمر كذلك بَدَأَ الله تعالى قضية الإسراء بما يزيل العجب، ويرفع الريب، ويقطعُ دابر الشك والاضطراب فقال: ﴿ سُبحان الذي

أسرى بعبده ليلاً ﴾ فبدأ قصة الإسراء بالتسبيح الدال على كمال قدرة الله تعالى، وعظمة قوته، ونزاهته أن يُعجزه أمر من الأمور العظام، والقضايا الجسام، أو أن يصعب عليه شيء من ذلك، وبَيَّن في بَدْئِه بالتسبيح أَنَّ جميع القضايا العادية والخارقة للعادة كلها سواء بالنسبة لقدرته، وأن ذلك كله على الله يسير.

وهذا من سُنَنِ الله تعالى في إخباراته عن القضايا العظام التي فيها مظاهر القدرة، ومشاهد الإبداع والقوّة، فإنه سبحانه يبدأها بالتسبيح إجلالاً لعظمته، وتنزيهاً لمقامه أن يعجزه شيء أو يصعب عليه.

ومن ذلك قوله: ﴿ سُبْحَان الذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهم وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُون ﴾.

فهو سبحانه جعل بين النباتات كلها زوجية، وبين أصناف الإنسان والحيوان، وبين الجمادات ـ وفي هذا دليل على عظمة قدرته سبحانه، وربطه الأسباب بمسبباتها، وخلقه الفاعلية والقابلية، والفعل والانفعال، وتخصيص كلٍ بخاصته دليل على سعة حكمته سبحانه، فبدأ سبحانه الخبر عن هذا الأمر العظيم بالتسبيح، ليبين لعباده عظمة قدرته على كل شيء، وأنه تعالى وتنزه عن أن يعجزه شيء أو يصعب عليه شيء.

ومن ذلك قوله: ﴿ فَسُبْحان الله حِيْنَ تُمْسُون وَحِيْنَ تُصْبِحُون ﴾ الآيات الكريمة.

فإن تقليب الليل والنهار، وإذهاب الظلام عن العالم ونشر النور، وطي النور ومد الظلام؛ في ذلك دليل على قدرته سبحانه وسعة علمه وحكمته ـ فبدأ الخبر بالتسبيح.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ يعني أن قضية الإسراء، والمعراج هي قضية واقعية عظيمة الشأن، مستندة إلى قدرة الله تعالى وقوته وعلمه وعنايته، فهو الذي أسرى بعبده بقوته

سبحانه وبعنايته وبحفظه ورعايته، ونِعْم الصاحب في السفر هو سبحانه، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهمّ أنت الصاحب في السفر» الحديث، فلا مَجال للارتياب والاضطراب، ولا مجال للإنكار والاستكبار، فإن قضية الإسراء والمعراج هي معجزة خارقة للعادة البشرية.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ إنّه هُوَ السميع البصير ﴾ في هذا التذييل تنبيه إلى عظمة المسموعات التي سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وعظمة تلك المبصرات والمشهودات التي رآها، وأن ذلك لا يتحمله كل سامع ولا كل بصير، ولكن الله تعالى السميع البصير، الذي لا حد ولا انتهاء لقوة سمعه وبصره سبحانه ـ هو الذي أعطى رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قوة في سمعه، وقوة في بصره، حتى سمع تلك المسموعات العلوية، وأبصر تلك المشاهد السنية وثبت لذلك.

ومن تلك المسموعات سمعه: صريف الأقلام في المستوى الأعلى، وقال صلى الله عليه وسلم: «ثم رُفعت لمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام».

وأعلىٰ من ذلك سماعه كلام الحق، وخطاب الحق جلَّ وعَزَّ من الحق جلَّ وعلا، ومن تلك الخطابات أمره بالصلوات الخمس كما في حديث المعراج ـ صلى الله عليه وسلم.

ومن تلك المبصرات التي رآها صلى الله عليه وسلم رؤيته آيات ربه الكبرى، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّه الكبرى ﴾.

وأعلى من ذلك كله رؤيته رب العزة عند سدرة المنتهى، قال تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَة ما يَغْشَى ﴾ ـ أي: اذكر: ﴿ إِذْ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ أي: حين غشيتها أنوار الخلّاق عندما تَجَلَّىٰ، فالقرآن يذكر

تلك الحالة بصيغة المضارع وإن كانت الرؤية حصلت قَبْلُ تصويراً وحكاية الحال، كما هو نظير قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى الملائكة أَنِّي مَعَكم فَثَبِّتُوا الذين آمنوا ﴾ الآية، مع أن الآية تذكر ما جرى في غزوة بدر؛ وقد مضت من قبل.

وهذا لا يتنافىٰ مع الآيات المتقدمة على هذه الآية في سورة النجم من رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام، فإنه حق ثابت في الأحاديث الصحيحة.

وقد تقدم معنا أَنّ فاتحة سورة النجم هي صريحة في إثبات المعراج، أما فاتحة سورة الإسراء فهي صريحة في إثبات الإسراء، ومشيرة إلى إثبات المعراج في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَه مِن آياتِنا﴾ إذ لم يُرِد بهذه الآيات تلك الجبال والأشجار والوديان ـ ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى؛ فإنَّ هذه الآيات يَرَاها جميع المسافرين في ذهابهم وإيابهم.

وليس المراد أيضاً جدران بيت المقدس وأعمدته وأبوابه فإن كل من دخله يراها ويشاهدها ـ مع أنه سبحانه يقول: ﴿ لنريه من آياتنا﴾ أي: نخصه، إذاً فهناك آيات أسمى وأجل وأعلى، وهي تلك الآيات التي رآها في معراجه إلى العالم العلوي، كما جاء ذلك في أحاديث المعراج التي سنوردها بعد إن شاء الله تعالى ـ وهي التي ذكرها سبحانه بقوله في سورة النجم: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيات ربه الكبرى ﴾.

قال تعالى: ﴿ والنَّجْمِ إِذَا هَوى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوى. وَمَا يَنْطِـقُ عَنِ الهَوى. إِنْ هُوَ إِلّاَ وَحيٌ يُوحى. عَلَّمَهُ شَدِيْدُ القُوى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى. وَهُوَ بالأُفُق الأَعْلى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَـأَوْحَى إِلَى عَبْـدِهِ مَـا أَوْحَى. مَـا كَـذَبَ الفُؤَادُ مَـا رَأَى. أَفَتُمَارُوْنَه عَلَى مَا يَرَىٰ. وَلَقَدْ رَآهْ نَزْلَةً أُخْرَىٰ. عِنْد سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ.

عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَىٰ. إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَىٰ. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّه الكُبْرى ﴾.

أقسم سبحانه بالنجم إذا هوى، والمراد والله تعالى أعلم: جميع النجوم حين تهوي من المشرق إلى المغرب، وهي في شِدَّة سرعتها مع كبر حجمها وعظم جرمها تقطع تلك المسافات العلوية الواسعة، والأبعاد الشاسعة، من مشرقها المحدد لها، إلى مغربها المحدد لها، في الوقت المعين لها، بحيث لا تزيد عليه، ولا تنقص عنه، ولا تتقدمه ولا تتأخر عنه، ولا ثانية الثانية، وكل يسبح في فلكه دون أن يجاوزه إلى غيره، حتى لا يحدث اضطراب في سيرها ولا اصطدام في أجرامها، وهكذا الأمر دواليك ـ ليل نهار: ﴿كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾ ـ بالمقادير المحكمة، والأوامر المبرمة، قال تعالى: ﴿ والنُجومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْـرِهِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيْرُ العَزِيْزِ العَلِيم ﴾، فَقَدَّر لها سيرها، ومواقعها المتباعدة عن بعضها بنسب معينة، ومواقع شروقها وغروبها قال تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوْمِ. وَإِنَّه لَقَسَمٌ لَوْ تَعلمون عَظِيم ﴾، وفي هذا تنبيه للعقلاء إلى التعقل والتفكر في عظم هذا الأمر ودقة حسابه، وتقدير مقاديره، وقدرة خالقه، وسعة علمه، وعظمة حكمته، قال تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاح وَجَعَل الليل سَكَناً والشَمْسَ والقَمرَ حُسْبَاناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

وفي هذا القسم تنبيه للعاقل إلى التفكر والاعتبار في قدرة الذي أجرى تلك النجوم الكثيرة الكبيرة في جرمها، وسَيَّرها في أحسن نظام، وأبدع إحكام، دون أن يعتريها خلل أو فساد أو اضطراب ببعضها.

وفي هذا كله تنبيه للعاقل إلى أن الذي قَدَر على كل ما هنالك، وأشهد عباده بأعينهم ذلك لهو قادر على أن يرفع حبيبه الأكرم، ورسوله الأفخم إلى تلك العوالم السماوية وما فوقها من العوالم العلوية، ويطوي له تلك الأبعاد والمسافات مع حفظ جسمه الشريف صلى الله عليه

وسلم وصيانته، وأن يُريَه تلك الآيات الكبرى والمشاهد العظمى، في تلك العوالم العليا.

ومن هنا يفهم اللبيب تلك المناسبة بين القسم بالنجم وما يليه من قصة المعراج في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآه نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهى عندها جنة المأوى ﴾.

ولكن قبل أن يذكر سبحانه قصة العروج إلى تلك العوالم وسدرة المنتهى، قَدَّم مقدمة محكمة ومقطوعاً بها، ومسلمة عند جميع الناس؛ حتى إنها مسلمة عند أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين عارضوه وعاندوه فقال سبحانه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكم وما غوى ﴾.

والمعنى: أن هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد نشأ بينكم، وتربَّى على مشهدكم، فهو صاحبكم الذي تعرفونه من صغره إلى أن بلغ وشب فيكم، إلى أن بلغ سنَّ الأربعين، وأنتم أعلم الناس بسيره وسيرته الحسنة، لم تعثروا له على كذبة ولا خيانة ولا فاحشة ولا رذيلة، بل كلكم تعلمون أنه الصادق الأمين، الذي ما ضَلَّ وما غوىٰ، بل هو على الهدى والرشاد في علمه وعمله، وقصده وفعله، فإن الضلالة ضد الهدى، والغواية ضد الرشاد.

وقوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكم وَمَا غَوى ﴾ فيه أعظم حُجّة، وأقوى تَحَدٍّ للذين كذبوه صلى الله عليه وسلم وكفروا به، لأنهم لو كانوا رأوا منه أدنى كذبة، أو أقل خيانة من الأموال أو الأعراض وغيرهما، أو عثروا على أقلِّ زَلَّة صدرت منه صلى الله عليه وسلم منذ صغره إلى بلوغه الأربعين ثم تنزل عليه النبوة ـ لقالوا له: أنت في الأمس كنت تعمل كيت وكيت فما بالك الآن تنهانا عَمَّا كنت تفعله، فإنهم كانوا أعلم الخلق بأحواله وأقواله وأعماله، لأنه صلى الله عليه وسلم تربَّى ونشأ فيهم، فلم يعرفوا عنه كذباً، ولا عبثاً، ولا سفاهة، ولم ينقضوا عليه أمراً

واحداً قط كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رسولهم فهم له مُنْكِرُون﴾ ـ أي: بل هم يعرفونه بصدقه وأمانته وحصانته كما يعرفون آباءهم، حتى أَنَّ أشدهم إنكاراً وجحوداً وعناداً كانوا يقرّون بصدقه وأمانته وعفته، دون تردد منهم:

فهذا أبو جهل يُصرِّح لابن أخته: المسور بن مخرمة بأن محمداً صادق لم يكن ليكذب على الله تعالى ـ وذلِك أن المسور بن مخرمة قال: قلت لخالي أبي جهل: أيْ خال هل كنتم تتهمون محمداً صلى الله عليه وسلم بالكذب قبل أن يقول ما قال ـ أي أنه رسول الله تعالى ـ؟.

فقال أبو جهل: يا بنَ أختي لقد كان محمد وهو فينا شابٌّ يُدعىٰ الصادق الأمين، فلما وَخَطَهُ الشيب لم ليكن ليكذب على الله تعالى.

ـ والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم في حال صباه وشبابه لم يكذب قَطُّ مع الناس، فلما كبرت سنه وبلغ الأربعين لم يكن ليكذب على الله تعالى، ويقول: أنا نبي ورسول وليس بذاك، فلا يُعْقَل أن يكذب على الله بعد ما بلغ الأربعين، فإنه في شبابه ما كذب؛ بل هو الصادق الأمين كما تعرفونه ـ.

قال المسور: فقلت إذاً لِمَ لا تتبعونه؟!.

فقال أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ـ فأطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، ثم قالت بنو هاشم: ـ أي: مفتخرين علينا ـ فينا نبيٌّ الله تعالى؛ فمن أين ندرك هذه؟. اهـ.

فأعْمَتْهُ العصبية الجاهلية وصدته عن سبيل الهدى والرشاد، وسلك طريق الجحود والعناد ـ نعوذ بالله العظيم من شر الحاسد والحاقد والمعاند الجاحد.

ولما نزلت آية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْن﴾ صعد رسول الله

صلى الله عليه وسلم جبل الصفاء ونادى أصول القبائل حتى اجتمعوا فقال لهم: «أرأيتكم إنْ أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغِيْر عليكم أكنتم مُصَدِقِيَّ»؟

فقالوا كلهم ـ وفيهم أبو لهب وغيره ـ: نعم نُصَدِّقُكَ يا محمد ما جربنا عليك إلّا صدقاً.

قال صلى الله عليه وسلم: «فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ـ أي: أنذركم عذاب الله تعالى الذي هو أقرب وأسرع من خيل عدوكم لو اجتمعت عليكم في الوادي خلفكم.

وأما قوله تعالى: «وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوْحَىٰ ﴾ ففي هذا بيان حَقِّيَّةِ نطقه، وبيان تعريف الحق له، وتنزيه نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصدر عن هوى، ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لِيُبَيِّنَ أن نطقه صلى الله عليه وآله وسلم هو نطق بالحق، وهو صادر عن الحق الذي هو هدى الله تعالى ووحيه، لا عن غَيٍّ، ولا عن ضلال، فإذا لم يصدر عن هوى، فكيف ينطق بالهوى؟.

وإنما نطقه صلى الله عليه وسلم صادر عن وَحْيٍ يُوْحى إليه من الله تعالى رب العالمين، ليصلح به، ويهدي به، ويُسعد به العالمين، وهذا يشمل نطقه بالقرآن والسنّة قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ﴾ ـ أي: السنّة النبوية، وصَحَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألَا وإِنِّي أُوْتِيْتُ الكِتاب ومِثْلَهُ مَعَه» ـ أي: مثله في مُطلق الوحي من الله تعالى، وهذا هو السنّة بلا ريب ـ والأدلة على ذلك مبسوطة في كتابي: (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) فارجع إليه

وأما قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيْدُ القُوَى ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾ ففي هذا بيان صفات كمال واسطة الوحي إليه، وبيان محاسن واسطة العلم إليه

ـ الملك الذي أرسله الله تعالى بالقرآن والوحي لتعليمه ذلك، ألا وهو جبريل الأمين عليه السلام.

فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وحسن الصورة، وكمال الفهم والحصانة والذكاء ـ وفي هذا تعديل لسند الوحي: القرآني والنبوي، وشهادة بصدق النبوة المحمدية، وأن الطيور على أشكالها تقع، فليس هناك سحر ولا كَهَانة، وإنما هو كلام الله تعالى ووحيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر سبحانه استواء جبريل عليه السلام فقال جلَّ وعلا: ﴿ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾.

فذكر سبحانه استواء جبريل عليه السلام الذي هو واسطة التعليم والوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودُنُوَّهُ وتدليه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه: قَدْرَ قاب قوسين أو أدنىٰ من ذلك، وليس هذا من باب التردد والشك، ولكن من باب تحقيق قدر المسافة، وأنها لا تزيد على قاب قوسين أصلاً، كما قال تعالى: ﴿ وأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيْدُوْن ﴾ فهذا من باب تحقيق العدد، وأنهم لا يَنقصون عن مائة ألف ألبتة.

﴿ مَا كَذَبَ الفُؤادُ مَا رَأَىٰ ﴾ وفي هذا يُخبر سبحانه عن تَصديق فؤاده صلى الله عليه وسلم لما رَأَته عيناه، وأنَّ القلب الشريف صدَّق العين، فما رآه صلى الله عليه وسلم ببصره صدقه فؤاده وعلم أنه كذلك على الحقيقة، وليس ذلك من باب التخييل إليه أو الوهم، كمن رأى شيئاً على خِلافِ ما هو به فكذب فؤاده بصره، بل توافقت رؤية القلب مع رؤية البصر وطابقت لها، فهي رؤية حق، ومعاينة صدق، فلا ينبغي للمعاندين أن ينكروا ويكابروا في ذلك، ويجادلوا ويماروا.

قال تعالى: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾.

والمعنى أنَّه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها ـ له ستمائة جناح، قَدْ سدَّ الأفق، وذلك دون السماء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند بَطْحَاءِ مَكَّة فاستوى له جبريل: ﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ الآيات.

ورآه مرة أخرى فوق السماوات عند سدرة المنتهى، وجبريل على صورته الحقيقية، وكان هذا ليلة الإسراء والمعراج.

وأما قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَىٰ السِدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾، فالظاهر من هذه الآيات أنَّها تشير إلى رؤيته صلى الله عليه وسلم رب العزة وأنه سبحانه تَجلّى له صلى الله عليه وآله وسلم عند سدرة المنتهى، كما تَجلّى لموسى عليه السلام عند الجبل، غير أن الجبل لم يستقر بل جعله دكّاً، وموسى عليه السلام لم يَثْبُتْ للرؤية بل خَرَّ صَعِقاً، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه ثبت بقوة من الله تعالى، حتى أنه صلى الله عليه وسلم ما زاغ بصره وما طغى، أي: ما حَار بصره ولا دهش، وما طغى أي: ما جاوز المنظور إليه، كما يدلُ على ذلك الأحاديث الواردة في ذلك، وكما هو فحوى سياق الآيات، وكما هو فحوى سياق المعراج الشريف.

أما الأحاديث: فمنها المرفوع ومنها الموقوف ـ ولكن له حكم المرفوع لأنه لا مجال للرأي في ذلك، فقد جاء في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (يغشاها نور الخلاق سبحانه)، وجاء عن الحسن أنه قال: (غشيها نور رب العزة جلَّ شأنه فاستنارت)، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

(غشيها رب العزة عز وجلَّ)[1].

وهذه الأقوال تشير إلى تَجلِّي رب العزة بالرؤية لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى، وقد تجلى بالنور الباهر، ويشهد لذلك كله ما جاء في (صحيح) مسلم عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذرٍّ رضي الله عنه لو رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسألته، فقال: (عن أي شيءٍ كنت تسأله؟)، فقال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟.

قال أبو ذر رضي الله عنه: (قد سألته فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت نوراً») ـ أي: رأيت ربي وقد تجلّى بالنور، ففي هذا إثبات رؤيته صلى الله عليه وسلم ربَّه، إذ لو لم يكن رآه لكان الجواب بقوله: لم أَرَ ربّي.

وكان هذا التجلي النوراني عند السدرة فغشيتها أنوار الرب عزّ وجلّ ـ كما تقدم عن الحسن وغيره.

وبناءً على هذا يكون الظرف وهو ﴿ إذ ﴾ متعلقاً بما بعده من الجملة المنفية، ولا يضر التقدم على ما النافية، لأنه يتوسع في الظرف ما لا يتوسع في غيره[2].

أو يكون متعلقاً بفعل محذوف وهو: اذكر، وجاءت صيغة الفعل المضارع وهو: ﴿ إِذْ يَغْشَىٰ ﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، وهذا لا يتنافى مع رؤيته صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام؛ كما دلّت على ذلك الآيات السابقة.

---

(١) انظر ذلك كله في تفسير ابن كثير، و(الدر المنثور)، والآلوسي ـ وغيرها.
(٢) انظر تفسير الألوسي وغيره.

والقول بإثبات رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه تعالى ليلة المعراج بالبصر؛ القول بذلك ثابت عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين فمن بعدهم.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم رأىٰ ربه بِعَيْني رأسه، ومثله عن أبي ذر وكعب رضي الله عنهما والحسن ـ يعني البصري ـ رحمه الله تعالى؛ وكان ـ الحسن ـ يحلف على ذلك.

قال القاضي: وحُكِيَ مثله عن ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما، وأحمد بن حنبل، وحكى أصحاب المقالات عن أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه. اهـ.

وقد نقل ذلك أيضاً الإمام النووي ثم قال: وأما صاحب التحرير فإنه اختار إثبات الرؤية، قال والحجج في هذه المسألة وإن كانت كثيرة ولكنَّا لا نتمسك إلاّ بالأقوى منها، وهو حديث ابن عباس رضي الله عنهما القائل: (أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم عليه السلام، والكلام لموسى عليه السلام، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم).

قال: وعن عكرمة: سئل ابن عباس رضي الله عنهما: هل رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ربه؟، فقال: (نعم).

قال: وقد رُوِيَ بإسناد لا بأس به عن شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ربه).

قال: وكان الحسن يحلف: لقد رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ربه. اهـ.

قال صاحب التحرير: والأصل في الباب حديث ابن عباس حبر الأمة والمرجوع إليه في المعضلات، وقد راجعه ابن عمر رضي الله

عنهما في هذه المسألة وراسله: هل رأىٰ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ربَّه؟ فأخبره أنَّه رآه.

ثم قال صاحب التحرير: وإذا صَحَّت الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما في إثبات الرؤية؛ وجب المصير إلى إثباتها، فإنها ليست مما يدرك بالعقل، ويدرك بالظن، وإنما يتلقى بالسماع، ولا يستجيز أحد أن يُظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد إلخ.

قال الإمام النووي بعدما نقل ذلك: فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلّا بالسماعِ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ هذا مما لا ينبغي أن يتشكَّكَ فيه. اهـ.

قال عبد الله غفر الله تعالى له: ولا شك أن نقل إثبات الرؤية عن ابن عباس وغيره هو أمر ثابت من طرق متعددة، ومن ذلك:

ما رواه الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت ربي عَزّ وجلّ».

وأخرج الطبراني في (الأوسط) بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: (إنَّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه مرتين: مَرَّة ببصره، ومَرّة بفؤآده).

وأخرج الطبراني أيضاً عن ابن عباس أنه قال: (نظر محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى ربه)، قال عكرمة: فقلت له: نظر محمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه؟، فقال: (نعم؛ جُعل الكلام لموسى عليه السلام، والخلّة لإبراهيم عليه السلام، والنظر لمحمد صلى الله عليه وسلم).

وأخرج البيهقي في كتاب (الرؤية) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، وآصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم بالرؤية).

وأخرجه البيهقي بلفظ آخر: (أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم عليه السلام، والكلام لموسى عليه السلام، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

وأخرج ابن مَرْدُوْيَهْ عن أنس رضي الله عنه قال: (رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه).

وأخرج النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وعليهم وسلَّم تسليماً)[2].

وأما قول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها لمسروق كما جاء في (صحيح) مسلم: (من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية)، ثم قالت له: (أولم تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿لا تُدْركه الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُـوَ اللَّطِيْفُ الخَبِيْرُ﴾، فليس مقصودها نفي رؤية النظر بالبصر، وإنما مقصودها نفي رؤية الإدراك والإحاطة بالبصر، وهذا واضح من استدلالها بالآية الكريمة، فإن الآية تنفي الإدراك لا تنفي أصل الرؤية بلا إدراك، لأن الرؤية بالنظر بلا إدراك هو الثابت بنص الآية قال تعالى: ﴿وُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، فهذه الآية هي قول الله تعالى، وتلك الآية هي قول الله تعالى ـ ولا اختلاف بينهما؛ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غير اللَّهِ لَوَجَدُوْا فِيْهِ اخْتِلافاً كَثِيْراً﴾.

(١) انظر (الخصائص الكبرى).

(٢) انظر (الدر المنثور).

وبيان ذلك أن الرؤية نوعان: رؤية نظر بالبصر، ورؤية إدراك وإحاطة بالبصر أو البصيرة؛ فالأولى ثابتة وهي لا تستلزم إدراك الكنه ولا الإحاطة بما يُرى، والثانية تقتضي ذلك، فالله تعالى لا يدرّك ولا يحاط به علماً، ولا يدرّك ولا يحاط به قدرة، ولا يدرَك ولا يحاط بصراً بل هو المدرِك والمحيط بكل شيء علماً وقدرة وبصراً جَلَّ وَعَزَّ.

وإذا أردت ما يقرب لك ذلك ـ بلا مشابهه ـ فإنك ترى السماء ناظراً إليها ببصرك، ولكنك لم يدرك بصرك حقيقتها، ولم تحط بها رؤيةً، فأنت تراها نظراً ولكن لم تدركها بصراً، والله تعالى أجلُّ وأَعَزُّ و ﴿ لَيْس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ هو يشير إلى النور الذي تجلَّى به على رسوله وحبيبه صلى الله عليه وسلم، وقد رأى الله تعالى بعيني بصره، ولكن ﴿ مَا زَاْغَ البَصَرُ ﴾، أي: ما دهش ولا حار، ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: ما جاوز المنظور إليه، والمتجلِّي عليه بالنور الباهر القاهر، لأن الله تعالى أعطاه قُوَّةً قوية خارقة للعادة في سمعه صلى الله عليه وسلم وبصره، حتى سمع ما سمع، وشاهد ما شاهد، ورأى رب العزة، وإلى هذا يشير بقوله سبحانه: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ ﴾، فالله تعالى الذي لا يتناهى سمعه وبصره، أعطى حبيبه الأكرم قوة في سمعه وبصره فرأى الحق، وسمع الكلام من الحق جلّ وعـلا، ولولا ذاك لزاغ البصر وطغى، وذلك أن من شاهد النور الباهر فهو لا محالة إمَّا: أن يحار بصره ويكلَّ ويدهش، أو يلتفت يميناً أو شمالاً ليريح بصره، ويخفف عنه سطوة النور أمامه، إذاً الذي غَشِيَ السدرة هو نور الله تعالى كما تقدم من الأدلة.

وكما ورد في رواية أحمد وغيره: «فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تَغَيَّرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها» الحديث.

وكما جاء في رواية النسائي عن أنس رضي الله عنه في حديث المعراج وفيه: «وأتيت إلى سدرة المنتهى فغشيتني ضبابة ـ أي: سحابة من نور ـ فخررت ساجداً، فقيل لي: ـ أي: فقال الله تعالى لي ـ إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك» الحديث.

وفي رواية ابن أَبي حاتم عن أنس رضي الله عنه ما يفسر ذلك: «ثم انطلق بي حتى انتهى إلى الشجرة ـ أي: سدرة المنتهى ـ فغشيتني سحابة فيها من كل لون ـ أي: من ألوان الجمال والحسن ـ وخَرَرْتُ ساجداً لله تعالى، فقال الله تعالى: يا محمد إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة» الحديث ـ أي: فبعد ذلك خَفَّفَها الله تعالى إلى خمس صوات عملاً، ولها أجر الخمسين فضلاً وكرماً.

فالمتجلي عند السدرة هو الله تبارك وتعالى.

ومما يدل على إثبات رؤيته صلى الله عليه وسلم ربَّه ليلة الإسراء والمعراج ـ سياقات أحاديث المعراج وفحواها، وذلك من وجوه متعددة:

أولاً: قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج: «فانطلق بي جبريل حتى أتى بي السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من؟ فقال: جبريل، فقيل: ومن معك؟، فقال: محمد صلى الله عليه وسلم، فقيل: وقد أرسل إليه؟، قال: نعم، قيل: فمرحباً به فلنعم المجيء جاء».

وهكذا كلما استفتح سماءً بعد سماء قيل له ذلك، وقال لهم جبريل عليه السلام ذلك. فقوله: «وقد أرسل إليه» معناه: وهل أرسل الله تعالى داعياً إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى حضرة رب العزّة والجلال، وذلك الداعي هو أنت يا جبريل، وقد أرسلك إليه لتأتي معه إلى رب العالمين؟.

وقد جرت عادة الملوك والعظماء؛ إذا دعوا مَنْ هو كريم عليهم أن

يكرموه بحسن اللقاء والاجتماع، وحسن الحديث معه وبحسن الإقبال عليه، لا أنهم إذا دعوه فأجاب دعوتهم، ودخل رحابهم، ألقوا الحجاب، وتحدثوا إليه من وراء الحجاب.

فلا تشبيه ولا تمثيل فإنه سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾، ولكن له المثل الأعلى ـ أي: الوصف الأكمل والأحسن، والأنزه والأعز والأرفع، على وجه لا يتناهى في حسنه وكماله.

فهو سبحانه لما أرسل إلى حبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام يدعوه إلى حضرته سبحانه، وأمر جبريل عليه السلام أن يصحبه في مسيره، ويفتح له الأبواب، ويُعلم به الحجاب الموكلين بفتح الأبواب ـ أي: أبواب السماوات ـ ليستقبلوا عظيم الجناب صلى الله عليه وسلم بكمال التحية والحفاوة والتكريم، وهكذا سماء فوق سماء، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، إلى مقام حَيًّا فيه ربُّ العِزَّةِ وَحَيَّاه ربُّ العزة وكَلَّمه، وأوحى إليه ووجه إليه أوامر؛ وأهمها فرائض الصلوات الخمسة، وأتحفه بعطايا من كنوز العرش ـ كما قال صلى الله عليه وسلم ـ وأكرمه بعطايا، ومنحه بخصائص: منها ما يرجع إليه، ومنها ما فيه تكريم لأمته ـ كما في حديث الدلائل.

أترى أن ذلك كله من وراء الحجاب؟!، كلا بل كان ذلك من غير حجاب.

ثانياً: جاء في حديث المعراج قوله صلى الله عليه وسلم: «ففرض الله عَلَيَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال لي: ما فَرَضَ ربك عليك وعلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت إلى ربي فقلت: يا ربي خَفِّفْ عن أمتي ـ فحط عني

خمساً»، إلى أن قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال: يا محمد إنهنَّ خمس صلوات كل يوم وليلة، فكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة» الحديث.

فقوله صلى الله عليه وسلم: «فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى» ظاهر في رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه في جميع ذلك كما هو فحوى الحديث، وليس هناك شيء ينفي ذلك؛ لا من ناحية النقل ولا العقل.

وقول موسى عليه السلام: «ارجع إلى ربك» ظاهر في رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه حين يرجع إليه ويكلمه، إذ لو كان الكلام من وراء الحجاب لقال له موسى: كَلِّم ربك من مكانك.

ثالثاً: إن كان المقصود من معراجه صلى الله عليه وسلم إلى الملأ الأعلى هو اطلاعه على عجائب السماوات والأرض وملكوتها ـ إذا كان هذا المقصود فحسب كان يكتفى باطلاعه صلى الله عليه وسلم وإراءته ذلك وهو في عالم الأرض كما حصل ذلك لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْـرَاهِيم مَلَكُوْتَ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ المُوْقِنِيْنَ ﴾.

وإن كان المقصود من المعراج هو تكليم الله تعالى من وراء الحجاب فحسب، فإن ذلك ممكن في الأرض كما حصل لسيدنا الكليم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوْسَى لِمِيْقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ الآية.

وإن كان المقصود هو اجتماعه بالأنبياء قبله فحسب، فلقد حصل له ذلك في بيت المقدس، ففي ليلة إسرائه صلى الله عليه وسلم لبيت المقدس اجتمعوا به كلهم، وصَلَّىٰ بهم إماماً ـ كما ورد في الصحاح.

بل هناك مقصد أسمى، ومطلب أعلى؛ ألا وهو رؤية رب العزة جلّ وعلا عند سورة المنتهى.

فما أكرم هذا الحبيب الأكرم على الله تعالى، وما أعظم مقامه

عند الله تعالى ـ لقد دعاه سبحانه إليه، ورفعه فوق الطباق، وفتح له الأبواب، وكشف له الحجاب، حتى عاين وشاهد حضرة رب الأرباب، بلا حَيْرَةٍ ولا اضطراب: ﴿ مَا زَاْغَ البَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾، صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حَقَّ قدره ومقداره العظيم، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم، وعلينا وعلى والدينا والمسلمين أجمعين ـ آمين.

مقام السيادة العامَّة

ومن جملة المقامات التي خصه الله تعالى بها صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيد ولد آدم أجمعين:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأوَّل من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأوّل مُشَفَّع».

وروى الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذلك؟.

يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس منهم، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون» الحديث يأتي بتمامه.

وإنما خَصَّ يوم القيامة بالذكر فقال صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد الناس يوم القيامة»، مع أن له السيادة في الدنيا والآخرة، هذا لأن الناس كلهم على مختلف مِلَلِهِم يقرون له بالسيادة يوم القيامة، ويشهدون له بذلك، وأما في الدنيا فمنهم ومنهم.

ومن وجه آخر: فإن السيد هو الذي يُرجع إليه في مهامِّ الأمور وعظائمها وشدائدها، وليس هناك أهَمُّ ولا أعظم ولا أشد من أمور الآخرة.

وإلى هذا كله يشير بقوله صلى الله عليه وسلم ـ بعدما أعلن

سيادته وأعلم الأمة بها ـ: «هل تدرون بم ذاك؟، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد» وذكر من تلك المهام والشدائد ليعلموا من يرجعون إليه إذا حلَّ بهم ذلك.

مقام لواء الحمد

لقد ورد في كثير من الأحاديث النبوية، الواردة في مناسبات مختلفة، ورد في ذلك كله ما يثبت خصوصيته صلى الله عليه وآله وسلم بلواء الحمد الذي يدخل تحته جميع الأنبياء؛ آدم فمن دونه صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

فمن ذلك ما رواه الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر» الحديث.

ومن ذلك حديث الترمذي والدارمي في قوله صلى الله عليه وسلم: «ألَا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر» الحديث.

وقد تكلمت على بعض خصائص لواء الحمد في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة) فارجع إليه.

المقام المحمود

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾.

وهذا هو مقام الشفاعة العظمى العامّة لجميع أهل الموقف، فإنّه يشفع بهم صلى الله عليه وسلم، ويُنقذهم من طول الموقف وكُرباته وأهوالها، بعد أن ضَجُّوا وصاحوا واستغاثوا بالرسل، وطلبوا منهم

الشفاعة فلم يستجيبوا لهم، بل اعتذروا وقال كل واحد منهم: نفسي نفسي نَفسي؛ لا تهمني اليوم إلّا نفسي، اذهبوا إلى غيري، حتى انتهوا إلى إمام المرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين فقال: «أنا لها، أنا لها»، وهناك يتقدم فَيَشْفَع ويُشفَّع، ويَنْفَضّ أمر الموقف، وكلهم يحمدونه صلى الله عليه وسلم على موقفه المشرف، ويثنون عليه بقيامه هذا المقام المحمود.

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما في تفسير المقام المحمود قال: (إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثَىً أو جُثَّاً[1] ـ أي: جماعات ـ كل أمّة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود)[2].

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يزال الرجل يسأل الناس ـ أي: يسألهم مِنَ المال تَكَثُّراً فوق الحاجة ـ حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم»، وقال: (إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العَرَقُ نصف الأذن، فبيناهم كذلك ـ أي: في كُربات الموقف ـ إذ استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فيشفع ليُقضىٰ بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً)[3].

وروى الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) قال الزرقاني: جُثَىً: بضم الجيم وفتح المثلثة المخففة مُنَوَّناً مقصوراً، قال الحافظ: جمع جثوة كخطوة وخطىً، ثم قال: وقال ابن الجوزي: عن ابن الخشاب إنما هو جُثَّاً بفتح المثلثة وتشديدها جمع جاثٍ مثل: غازٍ وغزاً ـ أي: جماعات، اهـ.

(٢) وهذا الموقوف له حكم المرفوع كما هو معلوم عند أهل الحديث.

(٣) كما في (صحيح) البخاري: كتاب الزكاة.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بِمَ ذاك؟.

يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فَيُسمِعُهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا تَرَوْن ما أنتم فيه؟، ألا ترون ما قد بلغكم؟، ألا تنظرون مَنْ يشفع لكم إلى رَبِّكم؟، فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم ـ فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر: خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك ـ اشفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟.

فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن أكل الشجرة فعصيته ـ نَفْسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أوّل الرسل إلى الأرض، وسَمَّاك الله عبداً شكوراً، ـ اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟.

فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ـ نفسي نفسي اذهبوا إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نَبِيُّ الله وخليله من أهل الأرض؛ اشفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟.

فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ـ وذكر كذباته ـ نفسي نفسي اذهبوا إلى

غيري اذهبوا إلى موسى صلى الله عليه وسلم.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فَضَّلَك برسالاته وبتكليمه على الناس؛ اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟،

فيقول موسى صلى الله عليه وسلم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أُوْمَر بقتلها ـ نفسي نفسي اذهبوا إلى عيسى صلى الله عليه وسلم.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكَلَّمْتَ الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه ـ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟.

فيقول لهم عيسى صلى الله عليه وسلم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ـ ولم يذكر له ذنباً ـ نفسي نفسي إذهبوا إلى غيري؛ اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ـ اشفع لنا عند ربك، ألا ترىٰ إلى ما نحن فيه؟، ألا ترىٰ إلى ما قد بلغنا؟. قال صلى الله عليه وسلم: فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يُقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفَّع، فأرفع رأسي فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي، فيُقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة؛ وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين

من مصاريع[1] الجنة لَكَمَا بين مكة وهجر، أو ما بين مكة وبُصْرى».

وهكذا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم شفاعة عامَّة لجميع أهل الموقف، ثم يشفع الشفاعات الخاصة، كما بَيَّنْتُ ذلك مفصلاً مع الأدلة في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة) فارجع إليه تجد أنواع الشفاعات هناك.

مقام قيامه صلى الله عليه وسلم عن يمين العرش

روى الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أوَّل من تنشق عنه الأرض، فَأُكْسَىٰ حُلَّةً من حُلَلِ الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ـ ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري».

وهذه خصيصة شَرَّف الله تعالى بها حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم ينلها أحد من الخلائق غيره؛ ولا الملائكة عليهم السلام ـ فإنها من جملة الخلائق.

مقام الوسيلة

الوسيلة في اللغة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود المحمود.

وأما الوسيلة التي خصّ الله تعالى بها سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم فهي عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة، ليس فوقها منزلة، وهي أقرب منازل الجنة إلى العرش وأرفعها، فهذه منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وداره في الجنة دلَّتْ على ذلك الأحاديث النبوية ومنها:

ما رواه الترمذي والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) المصراعان: جانبا الباب.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا صَلَّيْتُم عليَّ فسَلُوا لي الوسيلة»، قيل: يا رسول الله وما الوسيلة؟.

قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلّا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»(١).

وروى ابن مَرْدُوْيَه بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يُؤْتِيَنِي الوسيلة على خلقه».

وروى ابن مَرْدُوْيَه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه قال: «صَلُّوا عليّ صلاتكم، وسَلوا الله لي الوسيلة» فسألوه أو أخبرهم - أي: سأله الصحابة أو هو أخبرهم - فقال: «إنّ الوسيلة درجة في الجنة، ليس ينالها إلّا رجل واحد، وأرجو أَنْ أكون أنا»(٢).

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أُمته أن يسألوا الله تعالى له الوسيلة لينالوا الأجر العظيم، والفضل الكبير المترتب على دعاء الوسيلة.

فقد روى مسلم عن عبد الله بن عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول: ثم صَلُّوا عليَّ؛ فإنَّه مَنْ صلّى عليَّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فَإنّها منزلة في الجنة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله؛ وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حَلَّت عليه الشفاعة».

وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

(٢) انظر تفسير ابن كثير.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يَسألها لي عبدٌ في الدنيا إلّا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة»(١).

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
«من قال حين يسمع النداء: اللهمّ ربَّ هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ـ إلا حَلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة».

صاحب مقام الخلافة العظمى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال الله تعالى مخاطباً لحبيبه الأكرم صلي الله عليه وسلم: «إِنَّ الذينَ يُبَايِعُوْنَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُوْنَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَد عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيْهِ أَجْراً عَظِيْماً ﴾.

فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو خليفة الله الأعظم؛ بمعنى أنه رسول الله الناطق عن وحي الله تعالى، المبلِغ أوامر الله تعالى، والناهي عما نهى الله تعالى، والحاكم بما أراه الله تعالى، المنتقم لأجل الله تعالى، والرامي بقوة الله تعالى، المحفوف بعين الله تعالى، المؤيد بنصر الله تعالى ـ الذي من أطاعه فقد أطاع الله تعالى، ومن عصاه فقد عصى الله تعالى، ومن بايعه فقد بايع الله تعالى، ومن أوفى بما عاهده فقد أوفى بعهد الله تعالى.

ولقد استخلف الله تعالى أنبياءه صلوات الله تعالى عليهم:

قال العَلَّامة البيضاوي: جميع الأنبياء، استخلفهم الله تعالى في عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره سبحانه فيهم ـ لا لِحَاجة به تعالى إلى من ينوبه؛ بل لقصور المستخلَف

(١) كما في تفسير ابن كثير.

عليه ـ أي: وهم بنـو آدم ممن ليسوا بأنبياء فإنهم قاصرون عن قبول فيضه تعالى وتلقي أوامره بغير واسطة، ولذلك لم يستنبىء سبحانه ملكاً كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ الآية. اهـ.

ولكن لم يَنَل نبيٌّ مقام خلافته العظمى العامَّة الشاملة بل هو فيها متفرِّدٌ صلى الله عليه وسلم.

وبيان ذلك أن الله تعالى قال في آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيْفَةً ﴾ الآية.

وقال في الخليل إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إبراهِيمَ رَبُّه بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَال: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ الآية.

وقال لداود على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ الآية.

وقال لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّ الذَيْنَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُوْنَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهم ﴾، الآية.

فهذه الآيات القرآنية التي أعلن الله تعالى فيها منشور خلافته صلى الله عليه وسلم، وبيان خَلاَقَتِه وأهليته صلى الله عليه وسلم لهذا المقام الرفيع ـ لم تأت هذه الكلمات الجامعات لأعلى مراتب الكمالات إلّا لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنَّ في طيات هذه الكلمات الطيبات، والآيات الكريمات من الأسرار والأنوار، والمعالي القدسية، والإشارات القرآنية؛ في ذلك ما يَضيق نطاق النطق عن استيفائه، وتعجز العقول عن إحاطته واستقصائه، ولا يتسع التعبير عن كُنْهِ حقيقة المراد ـ بكلام سالم من الإيهام والانتقاد إلّا أن نقول: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُوْن اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيْهم ﴾.

فَأَكَّدَ معنى خِلافته عن الله تعالى، ورفعة شأنها وعلو مقامها بقوله: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ ﴾ على طريق الاستئناف ليقرر أَنَّ عقد الميثاق مع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، هو عقد ميثاق مع الله تعالى، ثُمَّ أَكَّد ذلك أيضاً فقال سبحانه: ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ على نفسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بما عاهَدَ عليهُ الله فَسَيُؤْتِيه أَجْراً عظيماً ﴾ ليكونوا موقنين حقاً أنَّ معاهدتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي معاهدة مع الله تعالى.

ولقد جاءت هذه الآية الكريمة، ـ أي: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَك ﴾ الآية جاءت على طريق الفصل، أي: من غير وصل بعاطف، جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً لِتُؤْمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ وتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهْ وَتُسَبِّحُوْهُ بُكرةً وأصيلاً. إِنَّ الذين يُبايِعُونَكَ ﴾ الآية.

جِيْءَ بذلك ليتبيَّن للعاقل وجه السبب الموجب لتعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره فوق كل معظم وموقر من المخلوقات، وأَنَّ حقاً على كل مسلم أن يعظم هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فوق كل معظم، ويوقره فوق كل موقر؛ لأنه خليفة الله الأعظم ـ وهذان هما المذكوران بقوله تعالى: ﴿ وتُعَزِّرُوْه وتُوَقِّرُوْهُ ﴾.

وقد أثنى الله تعالى على الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وبَيَّن أنهم هم المفلحون ـ أي: الذين ظفروا بخير الدنيا والآخرة، ونالوا سعادة الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿فَالذِيْنَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوْهُ وَنَصَرُوْهُ واتَّبَعُوا النُّوْرَ الذي أُنْزِلَ مَعَهُ أولئِكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾.

فتعظيمه صلى الله عليه وسلم ونصره وتوقيره ـ ذلك مقتضى الإِيمان به ـ واجب على كلِّ مسلم.

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعظمونه فوق تعظيم العظماء، ويرون أن ذلك هو حق عليهم يتطلبه إيمانهم.

فقد جاء في الصحيحين ـ من حديث صلح الحديبية ـ أن عروة بن مسعود ـ الذي جاء وقتئذٍ من قبل المشركين ـ جعل يَرْمُقُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعينيه ـ وقد أسلم عروة بن مسعود بَعْدُ وحسن إسلامه ـ قال: فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلّا وقعت في كف رجل منهم ـ أي: من الصحابة ـ فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، ومايُحِدُّوْن النظر إليه تعظيماً له صلى الله عليه وسلم.

فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه في مكة فقال: أَيْ قوم: والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ـ أي: ما رأيت ـ ملكاً قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً.

والله إن تنخم ـ أي: ما تنخم ـ نخامةً إلّا وقعت في كف رجل منهم فَدَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له ـ وإنه قد عرض عليكم خطَّة رشد فاقبلوها... الحديث.

وإذا أردت أن تعرف أدب الملائكة عليهم السلام الذين هم عباد مكرمون وكيف كان تعظيمهم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإجلالهم إيَّاهُ ـ فانظر إلى السيد المكين، والروح الأمين: جبريل على نبيينا وعليه الصلاة والسلام حين جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصورة رجل أعرابي يُعَلِّم الناس مجامع أمور دينهم بِسُؤَاله وقَاْلِهِ

وحَالِهِ، وكيف كان موقف أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه له، وإجلاله إيَّاه، حتى إنّ الصحابة جعلوا يقولون مرة بعد مرة: ما رأينا رجلاً أشدَّ توقيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ـ أي: جبريل عليه السلام ـ.

وحديث جبريل عليه السلام جاء في الجوامع والسنن والمسانيد، وقد رواه الإمام أحمد في (مسنده) بروايات وفيها:

عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فجاء رجل ـ فذكر من هيئته ـ أي: شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه مِنَّا أحد.

وقال: «أأدنو»؟، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُدْنُهْ» فدنا، فقال: «أدنهْ» فدنا، فقال: «أدنهْ» فدنا حتى كاد ركبتاه تمسَّان ركبتيه.

فقال: «يا رسول الله أخبرني عن الإيمان».

فقال صلى الله عليه وسلم: «تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر».

قال: «فما الإسلام»؟.

قال: «إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام رمضان، وغسل من الجنابة ـ هذه رواية، وفي رواية ذكر شهادة: أن لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله؛ كما في رواية الصحيحين ـ.

ثم قال ـ كما في رواية أحمد التي نحن فيها ـ: «كل ذلك».

قال ـ جبريل ـ: «صَدَقْتَ صَدَقْتَ».

ـ فقال القوم: ما رأينا رجلاً أشدَّ توقيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا، كأنه يعلم أنه رسول الله ـ.

ثم قال: «يا رسول الله أخبرني عن الإحسان»؟.
قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لا تراه فإنه يراك».

ـ كلٌّ ذلك نقول: ما رأينا رجلاً أشدَّ توقيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ـ فيقول: «صَدَقْتَ صَدَقْتَ».

قال: «فأخبرني عن الساعة».
قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: «صدقت».

ـ قال ذلك مراراً ما رأينا أشدَّ توقيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ـ ثم وَلَّى ـ أي: ذهب ـ.

فقال صلى الله عليه وسلم: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» الحديث ـ أي: يعلمكم دينكم بسؤاله وبحاله.

اختصاص الله تعالى نبيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأَوَّليات المعالي

لقد اختصّ الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأوليات الكمالات والمعالي؛ تشريفاً له على غيره، نذكر طرفاً منها:

الأول: فهو صلى الله عليه وسلم أَوَّل من تنشق عنه الأرض:

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعِثُوا، وأنا خطيبهم إذا وَفَدُوا، وأنا مُبَشِّرهم إذا أَيِسُوا، لواء الحمد يَومئذٍ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

الثاني: وهو صلى الله عليه وسلم أَوَّل من ينظر إلى ربه تبارك وتعالى:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، ما مِنْ

أحد إلّا وهو تحت لوائي يوم القيامة يَنْتَظِرُ الفَرَجَ، وإنّ مَعِيَ لواء الحمد، أنا أمشي ويمشي الناس معي حتى آتي باب الجنة فأستفتح، فيقال: من هذا؟ فأقول: محمد، فيقال: مرحباً بمحمد؛ فإذا رأيت ربي خَرَرْتُ له ساجداً أنظر إليه»[١].

الثالث: وهو صلى الله عليه وسلم أوّل من يُؤذن له بالكلام فيثني على الله تعالى:

روى البزار عن حذيفة رضي الله عنه قال: (يجمع الله الناس في صعيد واحد ولا تتكلم نفسٌ إلّا بإذنه، فيكون أول من يُدعىٰ محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إلَيك، والمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وعبدك بين يديك وبك وإليك، لا مَنْجَا ولا مَلْجأ منك إلّا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت».

قال حذيفة: فعند ذلك يَشفع فذلك قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[٢].

الرابع: وهو صلى الله عليه وسلم أَوَّل من يؤذن له بالسجود:

روى أحمد والبزار عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أول من يُؤذن له بالسجود يوم القيامة» الحديث كما في (الخصائص).

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) عزاه في (الخصائص) إلى الحاكم والبيهقي في كتاب: (الرؤية).

(٢) انظر (الخصائص)، وتفسير ابن كثير، وعزاه في (المواهب) إلى الطبراني، وقال الزرقاني: ورواه النسائي بإسناد صحيح والحاكم وصححه كما في (الفتح). اهـ.

«إنّ لكل نَبِيٍ يوم القيامة منبراً من نور، وإني لَعَلَىٰ أطولها وأنورها، فيجيء منادٍ ينادي: أين النبي الأمي؟ قال: فتقول الأنبياء: كُلُّنَا نَبِيٌّ أميٌّ فإلىٰ أين أُرسل.

فيرجع الثانية فيقول: أين النبي الأمي العربي؟ قال: فينزل محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى يأتي بَاب الجنة فَيَقْرعه فيقول ـ أي: الخازن ـ مَنْ؟، فيقول: محمد ـ أو أحمد ـ، فيقال: أَوَ قد أرسل إليه؟، فيقول: نعم. فيفتح له فيدخل الجنة فَيَتَجَلَّى له الربُّ تبارك وتعالى ولا يتجلَّى لشيء قبله، فَيَخِرُّ لله تعالى ساجداً، ويحمده بمحامد لم يحمده بها أحد ممن كان قبله، ولن يحمده بها أحد مِمَّن كان بعده، فيقال له: يا محمد ارفع رأسك، تكلم تُسْمَعْ، واشفع تشفع» الحديث[1].

الخامس: وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول شافع وأوَّل مشفع:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأوّل من يَنشق عنه القبر، وأوّل شافع وأول مشفع».

فيشفع صلى الله عليه وسلم الشفاعة العامَّة، ثم يشفع الشفاعات الخاصة في إدخالهم الجنة.

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً».

وروى أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أول شفيع في الجنة، لم يُصَدَّقْ نَبِيٌّ من الأنبياء ما صُدِّقْتُ، وإن مِنَ الأنبياء نبيّاً ما يُصَدِّقه من أمته إلاّ رجل واحد».

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

والمعنى: أنا أوَّل من يشفع بالعصاة من أمتي في دخول الجنة، أو المراد أنا أول شافع في الجنة لرفع درجات الناس فيها.

السادس: وهو صلى الله عليه وآله وسلم أَوَّل من يُقْضَىٰ بَيْنَ أمته قبل الخلائق:

روى مسلم وغيره عن حذيفة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أَضَلَّ الله عن الجمْعَة مَنْ كان قبلنا؛ فكان لليهود يوم السبت ـ أي: عيداً لهم ـ، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم فيه تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأَوَّلون يوم القيامة، المقضيّ لهم قبل الخلائق».

السابع: وهو صلى الله عليه وآله وسلم أوَّل من يجوز الصراط بأمته:

جاء في (الصحيحين) وغيرهما في حديث طويل عنه صلى الله عليه وسلم وفيه قال: (ثم يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم فَأكون أوّل من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذٍ أحد إلاّ الرسل ـ وكلام الرسل يومَئِذٍ: اللهمّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

الثامن: وهو صلى الله عليه وسلم أَوَّل من يأخذ بحلقة باب الجنة:

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أوّل من يأخذ بحلقة باب الجنة فَأُقَعْقِعها».

التاسع: وهو صلى الله عليه وسلم أول من يُفْتَح له باب الجنة:

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: مَنْ أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك».

العاشر: وهو صلى الله عليه وسلم أوَّل من يدخل الجنة:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أول الناس مَنْ تنشق الأرض عن جُمْجُمَتِي يوم القيامة ولا فخر، وأُعطىٰ لواء الحمد ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر»[1].

وروى الطبراني بسند حسن عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الجنة حُرِّمَتْ على الأنبياء حتى أدخلها، وحُرِّمَتْ على الأمم حتى تدخلها أمتي»[2].

الحادي عشر: وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول الأنبياء نُبوَّةً في عالم الأرواح:

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متى وجبت لك النبوة؟.

قال: «وآدم بين الروح والجسد»[3].

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن مَيْسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟.
قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وأخرجه الإمام أحمد من وجه آخر بلفظ: «متى جعلت نبياً».

ورواه البخاري في (تاريخه الكبير) الذي صَنَّفَه وعمره ثمان عشرة

---

(١) كما في (الخصائص).
(٢) انظر (الخصائص)، و (الفتح).
(٣) قال الترمذي بعدما رواه: هذا حديث حسن صحيح، قال: وفي الباب عن مَيْسرة الفجر. اهـ. كما في (سننه).

سنة عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ورواه أبو نعيم في (الحلية)، ورواه البغوي وابن السكن والحاكم وصححه وأقره الذهبي على تصحيحه، وقال في (الإصابة): سنده قويٌّ. اهـ[2].

وروى أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إني عِنْدَ الله لخاتم النَبِيِّين وإنَّ آدم لمنجدل في طينته»[3].

وروى ابن سعد في (الطبقات) مِنْ رواية جابر الجعفي عن الشعبي: أن رجلاً قال: يا رسول الله متى اسْتُنْبِئْتَ؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وآدم بين الروح والجسد».

وهذا المرسل يَعْضُدُه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رواه أبو نعيم:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله متى جعلت نبياً؟.

قال: «وآدم بين الروح والجسد»[4].

الثاني عشر: وهو صلى الله عليه وسلم أوَّل من قال: بلى عند أخذ الميثاق في عالم الذَرِّ:

جاء في جزء من (أمالي أبي سهل ابن القطان) عن سهل بن صالح الهمذاني قال: (سألت أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن

---

(١) كما في شرح (المواهب) وغيره.

(٢) انظر شرح (المواهب).

(٣) قال في شرح (المواهب): رواه البيهقي والحاكم وصحح إسناده، ورواه ابن حبان في (صحيحه).

(٤) انظر (المواهب) وشرحها.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: كيف صار محمد صلى الله عليه وآله وسلم يَتَقَدَّم الأنبياء وهو آخر من بُعِثَ؟.

فقال: إن الله تعالى لما أخذ الميثاق من بني آدم من ظهورهم ذريَّاتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، كان محمد صلى الله عليه وسلم أول مَنْ قال: بلى ـ أي: أنت ربنا ـ ولذلك صار محمد صلى الله عليه وسلم يتقدم الأنبياء وهو آخر من بُعِثَ).

الثالث عشر: وهو صلى الله عليه وسلم أوّل الأنبياء خلقاً في عالم الأرواح:

روى ابن سعد في (الطبقات) بإسناد حسن عن قتادة مرسلاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كنتُ أوَّل الناس في الخلق وآخرهم في البعث»

أي: هو صلى الله عليه وسلم في البعث إلى عالم الدنيا آخرهم ـ والمراد بالناس: الأنبياء.

كما جاء في رواية أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «كنت أوَّل النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث».

قال في (المقاصد): رواه أبو نعيم في (الدلائل) وابن أبي حاتم في (تفسيره)، وابن لَال ومن طريقه الدَيْلمي، قال: وله شاهد من حديث ميسرة الفجر ـ أخرجه أحمد والبخاري في (تاريخه) والبغوي وابن السكن، وأبو نعيم في (الحلية)، وصحّحه الحاكم بلفظ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»، ثم قال: ورواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله متى كنت نبياً؟، قال: «آدم بين الروح والجسد».

قال في (المواهب) وشرحها: وفي (أحكام ابن القطان) فيما ذكره ابن مَرْزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب رضي الله عنهم مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال: «كنت نُوْراً بين يَدَيْ ربي عَزَّ وجَلَّ قبل خلق آدم بأربعةَ عَشَرَ ألف عام». اهـ. والله تعالى أعلم.

قال المحققون: وهذا يشير إلى النور المخلوق المذكور في حديث جابر الذي رواه عبد الرزاق في (مُصَنَّفِهِ) بلفظ: قال: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أَوَّل شيءٍ خلقه الله قبل الأشياء؟

قال: «يا جابر إنَّ الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره» الحديث[1].

و (مِنْ) هَهنا ليست للتَبْعيض قطعاً بإجماع العارفين، فإنّ نور الله تعالى وجميع صفاته لا تتجزأ، وإنما هي للابْتِدَاء، نظير قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَموَاتِ وما في الأَرْض جَمِيْعاً مِنْهُ ﴾.

وخُلاصة القول عند العارفين: أَنَّ أوَّل الحقائق النورانية خَلْقاً هي الحقيقة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم كما دَلَّ عليه حديث جابر ونحوه، وأنّ أوّل الأرواح خَلْقاً هو الروح الأعظم روح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ونَبَّأَهُ الله تعالى في ذلك العالم الروحي قبل الأنبياء كلهم ـ كما دل عليه حديث: (متى استنْبِئْتَ)، وفي رواية: (مَتى وَجَبَتْ لك النبوة)، أي: متى ثَبَتَتْ لك النبوة؟، قال: «كنت نَبِيّاً وآدم بين الروح والجسد».

وفي رواية أبي نعيم: «كنت أوّل النَبِيِّين في الخلق وآخرهم في البعث».

وقد جمعت هذا الجزء وأنا في المدينة المنورة بأنوار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) كما في (المواهب) وشرحها، و (كشف الخفا) وغير ذلك.

وأسأل الله تعالى: الصدق في القول، والإخلاص في العمل.

وأسأله من فضله سبحانه حُسن العواقب والخواتيم.

وصلّى الله العظيم على أكرم الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلَّم تسليماً.

* * *

المحتويات

كتب للمؤلف

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
- حول تفسير سورة الحجرات .
- حول تفسير سورة قٓ .
- حول تفسير سورة الملك .
- حول تفسير سورة الإنسان .
- حول تفسير سورة الكوثر .
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
- هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
- شهادة لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها .
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
- التقرب إلى الله تعالى : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
- الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
- الصلاة على النّبي ﷺ : أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- الدعاء : فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن .
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح حلب : أقيول
أمام جامع أسامة بن زيد هاتف ٣٦٣٩٣٠٠ ـ ٣٦٢٣٧٥٧

